الكتاب الخامس عشر

الفصل الأول

1- إن الباقي من بلدان آسيا هو الأراضي الواقعة على ذلك الجانب من طوروس ما عدا كيليكيا، وبامفيليا، وليكيا، كلّ المناطق من الهند حتّى النيل بين طوروس والبحر الخارجي جنوباً[1]. وبعد آسيا تأتي ليبيا التي سأتحدّث عنها فيما بعد. أمّا الآن فيجب أن أبدأ من الهند، لأنها أوّل البلاد الواقعة في الشرق وأكبرها.

2- وينبغي على القارئ أن يتعامل بتسامح مع المعطيات التي سنسوقها عن هذه البلاد، لأنها أبعد البلدان عنّا، ولم يتح إلاّ لقلة من معاصرينا أن يروها. ولكن حتّى الذين رأوها، لم يروا فعلاً سوى أجزاء ما من هذه البلاد، أمّا أخبارهم عنها فأكثرها منقول عن روايات آخرين. وعلاوة على هذا، حتّى ما رأوه بأمّ العين كان على عجل في أثناء الحملة العسكرية. ولذلك نقلوا إلينا معلومات متضاربة عن المادّة عينها، لكنّهم دوّنوا الوقائع كلّها كأنها حقّقت بدقّة. وبعضهم كتب حتّى بعد مشاركة جماعية في الحملة ومكوث في هذه البلاد، ومثل هؤلاء على سبيل المثال، رفاق الإسكندر الذين ساعدوه في إخضاع آسيا. ومع ذلك غالباً ما يناقض هؤلاء الكتّاب بعضهم بعضاً. ولكن إذا كان هؤلاء يختلفون إلى هذه الدرجة في وصف ما رأوه بأمّ العين، فكيف ينبغي أن يكون موقفنا مما نقلوه سماعاً مما رواه الآخرون؟

3- إنّ أكثر الذين كتبوا شيئاً ما عن هذه البلدان في الأزمنة المتأخرة، وكذلك الذين أبحروا إلى هناك في زمننا الراهن، لا يقدّمون أيّ معطيات دقيقة. فأبوللودوروس الذي كتب «التاريخ البارثي» يذكر الإغريق الذين أعلنوا انتفاضة في باكتريانا ضدّ الملوك السوريين خلفاء سلوقس نيكاتور. ثمّ ينقل بعد ذلك، أن هؤلاء الملوك هاجموا حتّى الهند بعد أن اشتدّت شوكتهم وعلا شأنهم؛ ولم يكشف في غضون ذلك عن أيّ وقائع جديدة غير الوقائع المعروفة، بل يناقض هذه الوقائع نفسها.

فيزعم مثلاً ، أنهم استولوا على شطر من الهند أكبر من الشطر الذي كان قد استولى عليه المقدونيون. وعلى حدّ قوله إن إيثيكراتيس مثلاً، أخضع لسلطته 1000 مدينة. أمّا الكتّاب الآخرون فيزعمون أن تسع قبائل و5000 مدينة بين هيداسب وهيبانيس كانت خاضعة له، وأنّ أيّ مدينة من هذه المدن لم تكن أصغر من كوسوس الميروبية، وأن الإسكندر أخضع هذه البلاد كلّها ومنحها لبور.

4- إن التجار المعاصرين الذين يبحرون من مصر عبر النيل والخليج العربي إلى الهند، نادراً ما كانوا يصلون إلى الغانج، لكنّ هؤلاء أناس غير متعلّمين وغير مؤهلين البتّة لدراسة البلاد. ولم يأت من هناك سوى سفراء جاؤوا من منطقة واحدة ومن ملك واحد فقط هو بانديون (أو بور آخر)، حاملين الهدايا إلى قيصر أغسطس، إضافة إلى الحكيم الهندي الذي أحرق نفسه في أثينا(2) على غرار ما كان قد فعل كالان لكي يعرض مشهداً أمام الإسكندر.

5- وإذا ما أغفلنا مثل هذه القصص، وألقينا نظرة على وصف البلاد قبل حملة الإسكندر،فلعلّنا نجدها أقلّ عقلانية بكثير. ولكن من البدهي أن يكون الإسكندر المفعم بنشوة ذلك النصر كلّه، وهذا أمر طبيعي، قد صدّق مثل هذه القصص. وقد قال نيارخس في هذا السياق، إن الإسكندر الذي كان حبّ الذات يحرّكه، قد سعى بعزم وعناد وقاد قواته عبر هدروسيا، بعد أن علم أن سميراميس وقورش قادا حملة ضدّ الهنود، لكنّ الأولى عادت من هناك مهزومة وليس معها سوى 20 شخصاً، بينما عاد الأخير وليس معه سوى 7 أشخاص. وعليه فقد كان الإسكندر يفكر بالمجد الذي ينتظره فيما لو نجح بقيادة جيوشه ظافراً عبر تلك القبائل والأراضي ووصل بها سليمة كاملة، بينما لحقت بالذين سبقوه هزائم مأساوية هنا. وعليه فقد صدّق الإسكندر تلك القصص.

6- ولكن ما هو الأساس الذي يمكن أن يشكّل لدينا يقيناً بالقصص الهندية التي مصدرها حملة كحملة قورش وسميراميس؟ وعلى أيّ حال حتّى ميغاسفين يوافقنا الرأي إلى حدّ ما، فهو يقترح ألاّ نصدّق القصص القديمة التي تتحدّث عن الهنود. فعلى حدّ قوله إن الهنود لم يرسلوا يوماً جنودهم إلى خارج حدود بلادهم، كما لم تهاجمهم [قوات] من الخارج في أي وقت ولم تخضعهم، ما عدا القوات التي قادها هرقل وديونيسيوس، ثمّ القوات المقدونية مؤخراً. ولكنّ سيسوستريس المصري وتياركون الأثيوبي وصلا إلى أوروبا. أمّا نبوخذنصّر الذي نال لدى الكلدانيين مجداً أعظم من

مجد هرقل، فقد وصل حتّى الأعمدة؛ وبحسب ميغاسفين أن تياركون أيضاً وصل إلى هذه الأماكن، أمّا سيسوستريس فقد قاد حملة من إيبيريا إلى تراقيا والبونتس. وأخيراً، اجتاز إيدانفيرس السكيثي آسيا وصولاً إلى مصر. ولكنّ أيّاً من هؤلاء، على حدّ قول هذا الكاتب، لم يصل إلى الهند، وقد ماتت سميراميس قبل أن تحقّق حملتها. والحقيقة أن الفرس استجرّوا مرتزقة من الهند- الغيدراكيين، لكنّهم لم يشنّوا حرباً على تلك البلاد، وأقصى ما فعلوه، هو أنهم اقتربوا منها كثيراً في أثناء حملة قورش على الماساجيتيين.

7- وفيما يتعلّق بقصص هرقل وديونيسيوس، فإن ميغاسفين وبعض الكتّاب الآخرين يقرّون بصحّتها، لكنّ الأكثرية، ومنهم إيراتوسفين، ترى فيها روايات خيالية لا أساس لها من الصحّة، مثلها مثل الخرافات الأخرى الشائعة لدى الإغريق؛ ففي «باخوسيات» يوريبيدس مثلاً، يتفاخر ديونيسيوس على عادة الشبان قائلاً،

غادرت حقول ليديا الذهبية

و حقول فريجيا وبلاد الفرس

التي تحرقها أشعة الظهيرة،

وأسوار باكتريا والميديين،

واختبرت برد الشتاء، وزرت العرب،

وبلاد الآسيويين كلّها.

(الباخوسيات، مقطع 13)

ولدى سوفوكليس من يتغنّى بنيسا كجبل مكرّس لديونيسيوس:

من هنا بغيظ البشر الحمقى

رأى نيسا الماجد محاطاً.

أخذه ياكوس ذو القرنين مطعماً له،

فلا تسمع هناك شقشقة الطيور الصاخبة.

(مقطع 874، ناؤوك)

وهكذا دواليك. كما يدعونه «ميروترافيس»[3] أيضاً. وعلى النحو نفسه يتحدّث هوميروس عن ليكورغوس الإيدوني:

مرّة هاجم مرضعات باخوس العنيف غدراً؛

وطاردهن في نيسا الإلهي.

(الإلياذا VI، 132)

هـذه هـي القصص التي تـروى عن ديونيسيوس. أمّـا هـرقـل فـإنّ بعـض الكتّـاب لا يتحـدّثون إلاّ عـن حملاتـه الـتي شـنّها بالاتجـاه المعـاكس، ووصـل فيهـا حتّـى أطـراف الأرض غرباً، بينما ينقل آخرون أنه وصل حتّى أطراف الأرض بالاتجاهين.

8- وقد أخذ الكتّاب من هذه القصص قبيلة ما ودعوها قبيلة النيسيين، ودعـوا مدينة هؤلاء نيسا، وزعموا أن مؤسّسها هو ديونيسيوس؛ ولسوء الطالع أنهم دعوا الجبل الذي يعلو فـوق المدينـة باسـم ميروس، متـذرّعين بـأن سـبب هـذه التسـمية، هـي عـرائش العنب واللبلاب التي تنمو هناك، علماً بأن عنبها لا تنضـج ثمـاره أبـداً. فالأمطـار الغزيـرة التي تهطل هنا تسقط عناقيد العنب عن عرائشها قبل أن تسـودّ وتنضـج. ويـرى هـؤلاء في السـيدراكيين أحفـاد ديونيسـيوس لأنّ عـرائش العنـب تنمـو في بلادهـم، ولأن فيهـا مواكـب زاخـرة، فملـوكهم لا يكتفـون بشـنّ حمـلات خارجيـة، علـى منـوال المواكـب الباخوسية، بـل تسـير المواكـب الأخـرى عنـدهم علـى وقـع دقّ الـدفوف، ويرتـدون فيهـا ملابس ملوّنة، وهو واحد من تقاليد الميديين الآخرين. وحينما اسـتولى الإسـكندر بغـارة واحـدة علـى صـخرة آورن الـتي يجـري عنـد أسـفلها نهـر الهنـدوس، قـرب منابعـه، أعلـن مدّاحوه أن هـرقـل نفسـه هـاجم هـذه الصـخرة ثـلاث مـرّات وفي كـلّ مـرّة كـان هجومـه يصدّ. وكان السيبيون أحفاد المشاركين في حملة هرقل، وعلى حدّ قولهم إنهم حافظوا على تقليد هـرقل بارتداء جلود الكواسر، وحمل العصـيّ، ووشـم الـثيران والبغـال بالنـار وشماً علـى شـكل عصـا، كـدلالـة علـى منشـئهم الأصـل. ويحـاولون أن يرسـخوا هـذه الأسطورة بقصص عن القفقـاس وبروميثيـوس. وهـم فعـلاً ينقلـون إلى هنـا مـن البـونتس، مسرح أحداث هذه الأساطير على أساس ضعيف جدّاً: لقد اكتشـفوا في مكـان مـا مـن منطقة الباروباميسادس كهفاً مقدّساً. وادعوا أن هـذا الكهـف هـو سـجن بروميثيـوس؛ وإلى هنا على حدّ زعمهم، جاء هـرقل ليحرّر بروميثيوس، وأن هذا المكان هو القفقاس الذي أعلنه الإغريق سجن بروميثيوس.

9- وما يـدلّ علـى أنّ هـذه القصـص ليسـت سـوى اخـتلاق أبدعتـه مخيّلـة متملقـيّ الإسكندر، هو أنّ المؤرّخين لا يتّفقون حيالها. فبعضهم يرويها، وبعضـهم الآخـر لا يـأتي على ذكرها أصـلاً. فـلا يعقـل ألاّ يكـون المؤرّخـون علـى علـم بمثـل هـذه المـآثر الشـهيرة

المليئـة بالاختلاقـات، وإذا كـانو علـى علـم بهـا، فمعنـى هـذا أنهـم رأوا أنهـا لا تسـتحقّ الـذكـر، ومـن هـؤلاء مـنْ يسـتحقون أكـبر الثقـة. وهـذا واضـح مـن عجـز الشـعوب الـتي تقطـن بـين الإغريـق والهنـود (وهـي الشـعوب الـتي كـان ينبغـي علـى ديونيسـيوس وهـرقـل ومرافقيهما، أن يعبروا أراضيها في حملتهم على الهند) عـن أن تقدّم أيّ برهـان يؤكّـد أنهم مرّوا عبر أراضيها. وأخيراً، إنّ زيّ هرقل هـذا يرقـى إلى عهد أحدث بكثير من روايات طروادا، وهو ليس سوى اختلاق جاء به مؤلّفو «مآثر هرقل»، سـواء كـان هـذا بيساندرس أو أي مؤلّف آخر. فتماثيل هرقل القديمة لا تقدّمه في هذا الزيّ.

10- وفي مثل هـذه الأحـوال يتـأتّى لنـا أن نـأخـذ بالروايات الأقـرب إلى التصـديق. وأنا كنت قد تحريت هذه المسألة في الأقسام الأولى من عملي هذا[4]، ولكن في حدود الإمكانيـات المتاحـة. وأريـد الآن أن أعتمـد المبـادئ الـتي قررتهـا هنـاك بصفتها مبـادئ مثبتة وأضيف إليها أخرى، بقدر ما هـو ضروري لإيضاح الأمر. واستناداً إلى دراستنا السالفة نرى أن رواية إيراتوسفين الموجزة عن الأرض الـتي عدّوها في زمنه بلاد الهند، أي حينمـا هـاجم الإسـكندر هـذه الـبلاد، هـي الروايـة الأقـرب إلى التصـديق؛ فنهـر الهنـدوس كـان عندئـذٍ الحـدّ الفاصـل بـين الهنـد وأريانـا الـتي تقـع أبعـد نحـو الغـرب، وكانت هذه تابعة للفرس. وفيما بعد امتلك الهنود فعلاً شطراً كبيراً من أريانا منحهم إياه المقدونيون. وهاكم رواية إيراتوسفين عن الهند.

11- من الشمال تفصل الهند إلى حيّز يمتدّ مـن أريانـا إلى البحـر الشـرقي آخـر ذيـول طـوروس[5] الـتي يـدعو السـكّان المحلّيـون كـلّ جـزء منهـا باسـم خـاص بـه: باروباميس، وإيمود، وإيماي وما إلى ذلك؛ ويدعوها المقدونيون بالقفقاس. ويشكل نهر الهندوس حدود الهند الغربية. أمّا جهتاها الجنوبية والشرقية فإنهما أكبر بكثير من جهتيها الأخريين، وتبرزان داخل البحر الأطلسي. وعلى هـذا النحـو يغـدو شـكل هـذه الـبلاد شـبيهاً بـالمعيّن، ولكـنّ كـلّ ضـلع مـن الضـلعين الكـبيرتين أكـبر مـن الضـلع الصغيرة التي تواجهها بـ 3000 مرحلة؛ وعلى هـذا القـدر مـن المراحل نفسـه تمتـدّ الـرأس البحريـة المشـتركة بـين السـاحلين الشـرقي والغربـي، وهـي تـبرز لمسـافة واحـدة في الاتجاهين مقارنة بما تبقى من الساحل. ووفق ما هو متعارف عليه، أن طول الضلع الغربية من جبال القفقاس حتّى البحر الجنوبي 13.000 مرحلة، على طول نهر الهندوس حتّى مصبّه بحيث يصل طول الضلع الشرقية المواجهة، التي ينبغي أن نضيف إليها 3000 مرحلة أخرى، هي طول الرأس البحرية، إلى 16.000 مرحلة. وهذا هو طول البلاد

الأكبر وعرضها الأكبر أيضاً. ويحسب طول البلاد من غربيها إلى شرقيها. ويمكن تحديد جزء من هذا الطول حتّى باليبوفرا، بقدر أكبر من الدّقّة، لأنه قيس بحبل للقياس وتُعدُّ الطريق الملكية التي تبلغ مسافتها 10.000 مرحلة. أمّا طول الأجزاء الممتدّة بعد باليبوفرا فهو يحسب بطريقة تقريبية أثناء الإبحار من البحر صعوداً في نهر الغانج حتّى باليبوفرا. وقد يشكل هذا الطول ما يقارب 6000 مرحلة. وعلى هذا النحو فإنّ طول البلاد، تحديداً طولها الأصغر، سيكون 16.000 مرحلة؛ وبحسب إيراتوسفين أن هذا الرقم مأخوذ من «سجلّ محطات الطرق»[6]، وهو عادة المصدر الأكثر دقّة. ويوافق إيراتوسفين في هذا ميغاسفين أيضاً، بينما يجعل باتروكلس الرقم أقلّ بألف مرحلة. وإذا ما أضفنا إلى هذه المسافة طول الرأس البحرية التي تبرز أبعد نحو الشرق، فإن هذه المراحل 3000 تشكل الطول الأعظم[7]. وهذا الأخير هو المسافة من مصبّ نهر الهندوس على طول الساحل الذي يليه وصولاً إلى الرأس البحرية المذكورة والأطراف الشرقية للهند حيث يقطن الكونياكيون.

12- ويتّضح من هذا مدى تباين ما نقله الكتّاب الآخرون. فكتيسيوس يزعم أن الهند ليست أصغر مما تبقى من آسيا؛ وبحسب أونيسيكريتيس أنها تشكّل ثلث المعمورة، أمّا نيارخس فيرى أن الرحلة في السهل فقط تستغرق أربعة أشهر. ولكنّ ميغاسفين وديماخ أكثر اعتدالاً في حساباتهما، لأنهما يفترضان أن المسافة من البحر الجنوبي حتّى القفقاس «أكثر من 20.000 مرحلة»، ويقول ديماخ، إنّ «المسافة في بعض المواقع أكثر من 30.000 مرحلة». وأنا كنت قد قدّمت اعتراضاتي على هؤلاء الكتّاب في الفصول الأولى من عملي هذا[8]. ويكفي الآن أن أشير إلى أنّ وجهة نظري تتوافق مع وجهة نظر الكتّاب الذين يتوسلون التساهل، وعندما يتحدّثون عن الهند لا يؤكّدون على أي شيء محدّد.

13- إن الأنهار تروي أراضي الهند كلّها، بعضها يلتقي بأكبر أنهار البلاد: نهر الهندوس ونهر الغانج، وبعضها الآخر يصبّ في البحر عبر مصبّه الخاص. وتتبع هذه الأنهار كلّها من القفقاس، فتجري بادئ ذي بدء جنوباً، ثمّ يواصل بعضها مجراه بعد ذلك في الاتجاه نفسه (روافد نهر الهندوس على وجه الخصوص)، بينما ينعطف بعضها الآخر شرقاً، كما يفعل نهر الغانج. فهذا الأخير ينبع من البلاد الجبلية، وإذ يصل إلى السهول ينعطف نحو الشرق ويجري قرب باليبوفرا، أكبر مدن الهند؛ ثمّ يصبّ بعد ذلك في البحر في هذه المنطقة وفي مصبّ واحد، وهو أكبر أنهار الهند. أمّا نهر

الهندوس فهو يصبّ في البحر الجنوبي عبر مصبّين، مطوّقاً في أثناء ذلك منطقة تدعى باتالينا تشبه الدلتا المصرية. وعلى حدّ قول إيراتوسفين، إنه نتيجة لأبخرة مثل هذه الأنهار الكبيرة، وتأثير الرياح الموسمية الاتجاه تروي أراضي الهند أمطار صيفية، وتتحوّل السهول إلى مستنقعات. وفي موسم الأمطار يبذرون الكتان والدخن؛ وإضافة إلى ذلك السيسام، والرزّ، والبوسمور[9]؛ ويرزرعون في فصل الشتاء القمح، والشعير، والبقول، وسوى ذلك من المحاصيل التموينية التي ليست معروفة عندنا. وفي إثيوبيا ومصر يربّون الحيوانات نفسها تقريباً التي يربّونها في الهند؛ فنلقى في أنهار الهند من الحيوانات النهرية كلّ الحيوانات الأخرى، ما عدا الجاموس النهري؛ ولكّن أونيسيكريتيس يقول، إن الجواميس النهرية أيضاً موجودة هناك. وفيما يتّصل بالسكّان، فإن الهنود الجنوبيون يشبهون الإثيوبيين من حيث لون البشرة، ويشبهون الناس الآخرين من حيث ملامح الوجه والشعر (شعرهم مسترسل بسبب رطوبة الهواء)، بينما يشبه الهنود الشماليون المصريين.

14- ويقولون إن تابروبانا جزيرة في عرض البحر تبعد عن أقصى الأجزاء الجنوبية من الهند، وعن أرض الكونياكيين سبعة أيام من الإبحار باتجاه الجنوب. والجزيرة تمتدّ باتجاه إثيوبيا بطول يقارب 800 مرحلة؛ وفيها تسرح الفيلة أيضاً. لقد كانت هذه هي أخبار إيراتوسفين عن الهند. وتضفي أخبار الكتّاب الآخرين المضافة إليها، والتي تدققها بهذا الشكل أو ذاك، تُضفي على وصفي لها طابعاً خاصاً.

15- فاونيسيكريتيس مثلاً يقول عن تابروبانا، إنّ حجمها 5000 مرحلة، من غير أن يميّز طول الجزيرة عن عرضها، ويقول إنها تبعد عن البرّ 20 يوماً من الإبحار؛ فالسفن تبحر هنا بصعوبة لأنها مزوّدة بأشرعة ضعيفة ومبنيّة من جهتيها من حوافّ في العنابر. وتوجد جزر أخرى بين تابروبانا والهند، لكنّ تابروبانا هي الأقصى جنوباً. وتسرح في ضواحي تابروبانا وحوش برمائية، بعضها يشبه الثيران، وبعضها الآخر يشبه الأفراس، وبعضها الثالث يشبه الحيوانات البرية الأخرى.

16- ويسوق نيارخس الأمثلة الآتية على الترسبات النهرية: لقد أخذت سهول جيرم، وكايستر، وميانذرس، وكايك أسماءها هذه لأنّ الترسبات النهرية كانت تزيد من هذه السهول، بل الأرجح كانت تشكلّها، لأنّ الترسبات كلّها التي كانت تحملها الأنهار من الجبال (على شكل طمي)، كانت تربة خفيفة خصبة. ومن المعروف أنّ الأنهار تحمل الطمي نزولاً مع مجراها، ولذلك فإن هذه السهول تعدّ بمثابة نتاج لها،

وقد صدق تماماً قول القائل، إن السهول ملك الأنهار. ويتطابق قول نيارخس هذا مع ما قاله هيرودوت عن النيل والمنطقة المتاخمة له: إنها هبة النيل[10]. وعلى هذا الأساس يلاحظ نيارخس بحقّ أنهم دعوا النيل بالاسم عينه الذي حملته بلاد مصر.

17- ويقول أريستوبول، إن جبال الهند ومرتفعاتها فقط ترويها الأمطار وتغطيها الثلوج؛ أمّا السهول فإنها على الضدّ محرومة من الأمطار والثلوج، ولا يأتيها الماء إلاّ من فيضان الأنهار. ففي الشتاء تغطي الثلوج الجبال؛ ومع حلول الربيع يبدأ هطل الأمطار الذي يتزايد شيئاً فشيئاً، وفي موسم الرياح الموسمية يبدأ فيضانها الذي يتواصل ليل نهار من غير انقطاع وبقوة كبيرة حتّى بزوغ أركتور (نجم السِّماك الرامح. - ح. إ.)؛ فتروي الأنهار المملوءة بمياه الثلوج والأمطار السهول كلها. وعلى حدّ قوله إنه تسنّى له هو نفسه ولآخرين غيره رصد هذه الظاهرة حينما وصلوا إلى الهند آتين من أرض الباروباميسادس بعد غروب الثريا، وقضوا الشتاء على مقربة من منطقة جبلية في أرض الهيباسيين وأسّاكان، وفي أوّل الربيع نزلوا إلى السهول وإلى مدينة تاكسيلا الكبيرة، ومن هناك إلى نهر هيداسب، وإلى بلاد بور. ويواصل أريستوبول رواياته فيقول: إنهم لم يروا الماء في الشتاء، بل الثلج فقط؛ وقد هطل المطر أوّل ما هطل في تاكسيلا. وبعد أن نزلوا إلى هيداسب، وانتصروا على بور (لقد امتدّت طريقهم إلى نهر هيبانيس شرقاً، ومن هناك رجوعاً إلى هيداسب) هطلت أمطار متواصلة، خاصة في وقت الرياح الموسمية؛ لكنّ هطل الأمطار توقف مع بزوغ أركتور. وإذ تأخروا على نهر هيداسب بسبب بناء السفن، وبدؤوا إبحارهم قبل أيام من غروب الثريا، قضوا في الطريق الخريف كلّه، والشتاء، والربيع ووصلوا صيفاً إلى باتالينا حوالي وقت بزوغ الكلب[11]. وعلى هذا النحو، مع أنّ الإبحار تواصل 10 أشهر، إلاّ أنهم لم يروا الأمطار في أيّ مكان، حتّى حينما هبّت الرياح الموسمية بأقصى شدتها؛ أمّا السهول فقد كانت غارقة في مياه الأنهار الفائضة، ولم يكن الإبحار في البحر ممكناً، لأنّ الوقت كان وقت الرياح المعاكسة، ولم تهبّ من البرّ حتّى رياح خفيفة.

18- والرواية نفسها يرويها نيارخس؛ لكنّه لا يوافق أريستوبول بخصوص الأمطار الصيفية، إذ يؤكّد أن مياه الأمطار تروي الحقول صيفاً، وأنّ الأمطار لا تهطل في الشتاء. ويتحدّث الكاتبان عن فيضان الأنهار. وبحسب ما يقوله نيارخس، إنهم عند ما كانوا معسكرين قرب نهر أكيسين أرغموا على الانتقال إلى مكان آخر أعلى؛ وقد وقع هذا الحدث وقت الانقلاب الشمسي الصيفي. بل ويسوق أريستوبول قياس

مستوى ارتفاع المياه: 40 ذراعاً ملأت العشرون الأولى منها مجرى النهر إلى مستوى أعلى من مستوى العمق الأصل، حتّى الحوافّ، وشكّلت العشرون الثانية مستوى ارتفاع المياه في السهول. وبعد ذلك يتّفق الكاتبان على أن المدن الواقعة على قمم تلال صناعية تشكّل جزراً (على النحو الذي يحصل فيه هذا الأمر في مصر وإثيوبيا) ويقولان، إنهم على الرغم من أنهم يزرعون الأرض نصف جافة، إلاّ أنها مع ذلك تتفتت مع أوّل ضربة أداة، وتعطي غلالاً ناضجة ورائعة. وعلى حدّ قول أريستوبول، إنّ سنابل الرزّ تنتصب في الماء مباشرة داخل أحواض مسيّجة يبذر فيها. ويصل ارتفاع النبات إلى 4 أذرع، وهو يعطي سنابل كثيرة مليئة بالحبوب. ويُجنى محصول الرزّ وقت أفول الثريا، أمّا حبوبه فتدق كحبوب الحنطة. وينمو هذا النبات في باكتريانا، وبابل، وسوسيدا، كما في سوريا السفلى. وبحسب ميغيل أن الرزّ يبذر قبيل هطول المطر، لكنّ النبات يحتاج إلى ريّ وإعادة زراعة؛ وهم يروونه من أحواض مائية. ويقول أونيسيكريتيس، إن البوسمور نوع من الأقماح أصغر من الحنطة. وهو ينمو بين الأنهار. وبعد درس الحبوب يشوونها بعد أن يقسموا يميناً أنهم لن يخرجوا الحبوب من الجرن غير مشوية، لكي لا يتركونها بذاراً.

19- ويشير أريستوبول إلى أنّ هذه البلاد تشبه مصر وإثيوبيا، لكنّه يبرز بينها فرقاً يتمثّل في أن فيضان النيل يحدث بسبب الأمطار الجنوبية، بينما يحدث فيضان الأنهار الهندية بسبب الأمطار الشمالية. ويطرح بعد ذلك السؤال الآتي: لماذا لا تهطل الأمطار في البلدان الواقعة بينهما؟ والأمطار فعلاً لا تهطل في طيبايدا وصولاً إلى سيينا والأراضي الواقعة عند ميرويه، ولا في الهند على المدى الممتدّ من باتالينا حتّى هيداسب. ولكنّ المنطقة الواقعة فوق هذه الأجزاء، حيث تهطل الأمطار وتتساقط الثلوج، تحرث على حدّ قوله، كما تحرث البلدان الأخرى خارج الهند، لأنّ الأمطار والثلوج تروي الأرض هناك. ونحن نستطيع استناداً إلى ما ينقله أن نفترض بقدر من الشك، أن هذه البلاد تعرّضت لهزّات أرضية قوية، لأنّ غزارة المياه تجعل الأرض هشّة وتحدث فيها أخاديد، بحيث حتّى الأنهار تبدّل مجاريها. وهو على أيّ حال يقول، إنه لمّا أرسل في مهمّة ما، رأى بلاداً فيها أكثر من ألف مدينة وقرية وبلدة هجرها سكّانها، لأنّ نهر الهندوس ترك مجراه السابق وانعطف نحو اليسار في مجرى آخر أكثر عمقاً بكثير، واندفع هاوياً كالكاتاراكتيس(12)؛ ولذلك لم يعد الفيضان يغمر المنطقة التي تركها

النهر على يمينه، لأنها باتت الآن أعلى من مجراه الجديد، وأعلى من مستوى المياه وقت الفيضان.

20- وتلتقي معطيات أونيسيكريتيس مع هذه الأخبار عن فيضانات الأنهار وعدم وجود الرياح التي تهبّ من البرّ. فهذا الأخير يؤكّد أن شاطئ البحر ضحل، خاصة عند مصبات الأنهار، بسبب الترسبات النهرية والمضائق وغلبة فاعلية الرياح التي تهبّ من عرض البحر. وبعد أن يؤكّد ميغاسفين على خصوبة أرض الهند، يشير إلى أنّ الأرض تعطي هناك محصولين مضاعفين في كلّ عام. وهذا ما يؤكّده أيضاً إيراتوسفين الذي يدعو أحد البذارين شتوياً والآخر صيفياً (وكذلك موسميِّ الأمطار). فيقول، حقّاً لا يمرّ أيّ عام من غير هطول الأمطار في هذين الفصلين. ومن هنا تأتي سنون الوفرة، لأنّ الأرض لا تبقى قاحلة أبداً. كما تعطي الأشجار المثمرة بدورها وفرة كبيرة من الثمار؛ وتوجد أيضاً وفرة عظيمة من جذور النباتات، خاصة القصب الكبير؛ وهي حلوة المذاق سواء كانت مطبوخة أو غير مطبوخة، لأنّ الشمس تسخّن ماء المطر وماء الأنهار. ولذلك يريد إيراتوسفين أن يقول بمعنى ما، إن العملية التي تدعى لدى الآخرين «نضوج الثمار أو العصائر»، يدعوها الهنود «طبخ» الثمار، ويحصلون لدى «نضج» الغلال على طعم لذيذ كما لو كانت هذه قد أعدّت على النار. ويقول أيضاً: لهذا السبب فإنّ غصون الشجر مرنة طيّعة إلى درجة أنهم يصنعون منها أطراً للعجلات، ولهذا السبب عينه يظهر «الوبر»[13] على بعض الأشجار. ومن هذا «الوبر» يصنعون بحسب نيارخس، منسوجات دقيقة محوكة حياكة متقنة؛ وقد استخدمها المقدونيون بدلاً من الوسائد، وحشو بها سروج خيولهم. ومن النوع نفسه منسوجات «الأطواق» من «الفيسّون»[14] الذي يسحجونه من لحاء ذي نوعية معروفة. وهو يتحدّث عن قصب يعطي عسلاً من غير نحل[15]؛ والحقيقة أن هذه الشجرة شجرة مثمرة يستخرجون العسل من ثمارها، لكنّ ثمارها تسكر من يأكلها نيئة.

21- وثمّة في الهند كثير من الأشجار الغريبة بينها واحدة أغصانها تنحني إلى الأرض، وأوراقها ليست أصغر من الترس. وبشيء من التفصيل الزائد يصف أونيسيكريتيس بلاد موسيكان عادّاً إياها أقصى أجزاء جنوبي الهند. ويروي أنّ هناك أشجاراً ما كبيرة يصل طول أغصانها إلى 12 ذراعاً؛ وهي تواصل بعد ذلك نموها نحو الأسفل حتّى تبدو وكأنها تنحني حتّى تلامس الأرض. وبعد ذلك تفترش الأرض ثمّ تغرس فيها جذوراً؛ ومن ثمّ تصعد ثانية لتشكل جذعاً؛ وتعيد الأغصان التي تنبت على

هذا الجذع الدورة نفسها فتنحني لدى نموّها، وتغرس جذوراً جديدة، تشكل جذعاً جديداً، وهكذا دواليك حتّى تتشكّل من شجرة واحدة مظلّة كبيرة كالخيمة لها كثرة من الدعائم(16). ويقول عن حجم هذا الشجر، إنه يصعب على خمسة أشخاص أن يحيطوا بجذع واحدة منها. ويذكّر أريستوبول، بأنه على مقربة من أكيسين وقراه مع هياروتيدا، توجد أشجار غصونها تنحني حتّى تلامس الأرض، وأنها كبيرة بما يكفي ليتفيأ في ظلها خمسون فارساً طول وقت الهاجرة (بل 400 فارس، بحسب أونيسيكريتيس). ويروي أريستوبول عن شجرة ليست كبيرة الحجم تحمل قروناً كالفول طول الواحد منها 5 أصابع، وهي مليئة بالعسل؛ لكنّ الذين حاولوا أن يتذوّقوا هذه القرون، نجوا من الموت بصعوبة. وعلى أيّ حال فإن المبالغة في قصص أحجام الشجر تجاوزها كلّها الكتّاب الذين يقولون، إنهم رأوا شجرة وراء هياروتيدا ترمي وقت الظهيرة ظلاً طوله 5 مراحل. وفيما يخصّ الأشجار التي تعطي «وبراً»، يلاحظ أريستوبول، أن في زهرتها بذرة إذا ما انتزعت يمكن سحج ما يتبقّى كما يسحج الوبر.

22- ويقول أريستوبول، إنّ الحبوب في بلاد موسيكان تشبه القمح، فهي تنمو برية، وكذالك عرائش العنب التي تعطي النبيذ، مع أن روايات الكتّاب الآخرين تقول، إنه ليس في الهند نبيذ. ولذلك لا تلقى هناك بحسب أناخارسيس، لا مزامير ولا أي آلة موسيقية أخرى ما عدا الصنوج، والدفوف، والخشخيشات التي يستخدمها المشعوذون. ويتحدّث هو وكتّاب آخرون عن كثير من العقاقير، والجذور الدوائية والمؤذية، كذلك عن كثيرات الأزهار. ويضيف أريستوبول إلى ذلك، أنّ لدى الهنود قانوناً يقضي بإعدام كلّ من يبتكر عقاراً قاتلاً إذا لم يبتكر في الوقت نفسه ترياقاً له؛ أمّا من ابتكر الترياق فيحصل على مكافأة من الملوك. وفي جنوبي الهند تلقى القرفة، والنرد(17) وسوى ذلك من المواد العطرية، كما هي الحال في العربية وإثيوبيا؛ لأنّ جنوبي الهند يشبه هذين البلدين من حيث قيظ الشمس، لكنّه يختلف عنهما بوفرة المياه؛ فالهواء هناك رطب وأكثر تغذية وأكثر ملاءمة للإخصاب، مثله مثل الأرض والماء. ولهذا تبدو الحيوانات المائية والحيوانات البرّية في الهند أكبر حجماً من مثيلاتها في البلدان الأخرى. كما أنّ النيل أكثر قدرة من غيره من الأنهار الأخرى على إنجاب الكائنات الحية، ومن بين الحيوانات الكبيرة، ينجب البرمائية خاصة. وفي بعض الأحيان تضع النسوة المصريات أربعة توائم مرّة واحدة؛ بل يروي أرسطو أن

إحداهن وضعت سبعة توائم، ويصف النيل بأنه كثير الإنجاب ومغذّياً بسبب اعتدال قيظ الشمس الذي يبقي على العناصر الغذائية كلّها، ويرغم الفائض منها على التبخّر.

23- وبحسب أرسطو أنه ربّما تكون الواقعة الآتية مرتبطة بهذا: مقارنة بماء الأنهار الأخرى يمكن أن يعدّ الطعام بماء النيل على نصف نار. ويواصل قائلاً، فمياه النيل تجري على خطّ مباشر عبر حيّز من الأرض ضيّق وطويل، وتغيّر في طريقها كثيراً من مناطق العرض والطول، بينما أنهار الهند على الضدّ من هذا، تفيض في سهول أكبر وأكثر اتساعاً، وتبقى طويلاً في دوائر العرض عينها لذلك فإن أنهار الهند أكثر تغذية من النيل. والحيونات المائية في الهند أكبر وأكثر عدداً، وتهطل من الغيوم هنا مياه مسخّنة.

24- وما كان أريستوبول وأنصاره ليوافقوا على هذه الموضوعات، فهم يزعمون أن الأمطار لا تروي السهول. وبحسب أونيسيكريتيس أنّ مياه الأمطار تحديداً، هي سبب خصوصية الحيوانات وفرادتها هنا؛ ويسوق تبدّل لون الحيوانات غير المحلّية التي تشرب من هذه المياه، ليصبح كلون الحيوانات المحلّية، برهاناً على صحّة استنتاجه. وهو في هذا محقّ، لكنّه ليس، محقاً البتّة إذ يرى أن سبب اللون الأسود والشعر الأجعد لدى الإثيوبيين، هو الماء فقط، وينتقد ثيوديكتوس الذي يعيد سبب هاتين الخاصتين إلى الشمس. فثيوديكتوس يقول:

قرب حدودهم تنهي الشمس طريقها،
وتلوّن باللون الأسود الجليّ
أجساد الرجال، وتعقد شعرهم خواتم،
لتصوغ شكلهم بنار لا تخبو.

(مقطع 17، ناؤوك)

ولكن مع ذلك قد يكون أونيسيكريتيس محقاً في زعمه. فبحسب رأيه أن الشمس ليست أقرب إلى الإثيوبيين منها إلى الشعوب الأخرى، لكنّها تقف فوقهم عمودية، بالتالي حرارتها أقوى. ولذلك ليس صحيحاً القول، إنّ الشمس «جار قريب» لهم، لأنها تقع على مسافة واحدة من الشعوب كلّها. كما لا تعدّ الحرارة سبب مثل هذه الظاهرة؛ فالحرارة لا تؤثّر على الأجنّة في أرحام الأمهات، لأنّ أشعّة الشمس

لا تتسرّب إلى هناك. والأكثر صحّة ما يقوله الذين يردّون سبب اللون الأسود إلى تأثير الشمس ولفحها في ظل وجود نقص كبير في رطوبة سطح الجلد. ولذلك فإني أزعم أن شعر الهنود لا يتجعّد وبشرتهم ليست ملفوحة بشدّة لأنّ الهواء المحيط بهم محمّل بالرطوبة. أمّا فيما يخصّ رحم الأم، فإن نقل البذرة إلى هناك يؤدّي إلى تشكّل جنين يشبه الوالدين. وعلى هذا النحو يفسّرون الأمراض الولادية وسوى ذلك من أنواع الشبه. فالزعم بأنّ «الشمس تقع على مسافة واحدة من الشعوب كلّها»، لا يقوم إلاّ على أساس الإدراك الحسي، وليس على أساس الاستنتاج العقلي. وحتى انطلاقاً من الإدراك الحسي لم يأت الأمر مصادفة، بل على غرار قولنا، إن الأرض ليست أكبر من نقطة إذا ما قورنت بكرة الشمس. ووفق هذا النوع من الإدراك الحسّي الذي نشعر عبره بتفاوت درجات الحرارة (عن قرب- الحرارة أشد، وعن بعد، أضعف)، فإن بعد الشمس عن الجميع ليس واحداً. وعليه، بهذا المعنى فقط يمكن أن نتحدّث عن الشمس «كجار قريب» للإثيوبيين، وليس بالمعنى الذي افترضه أونيسيكريتيس.

25- وتنتمي الواقعة التالية بدورها إلى عداد الظاهرات المعترف بها التي تؤكّد على التشابه بين الهند من جهة، ومصر وإثيوبيا من جهة أخرى: كلّ السهول التي لا يغمرها الفيضان عقيمة بسبب نقص الرطوبة. وبحسب نيارخس أن الإجابة على السؤال الذي طرح من قبل بالنسبة للنيل، وتحديداً السؤال عن منشأ فيضانه، تقدمها أنهار الهند، لأنّ فيضانها تحدثه الأمطار الصيفية. ويواصل هذا الكاتب حديثة فيقول: لمّا رأى الإسكندر التماسيح في هيداسب، وكلاب الماء المصرية في أكيسين، قرر أنه وجد منابع النيل، وشرع يعدّ أسطولاً للإبحار إلى مصر، ظنّاً منه أنه يمكن أن يصل إلى مصر عبر هذا النهر. لكن؛ سرعان ما اقتنع بأن آماله لن تتحقّق. لأنّ

الأنهار مريعة، والتيارات عظيمة، ومياه المحيط

هنا لا قرار لها،

(*الأوذيسا* XI، 157)

ولا تصبّ فيه الأنهار الهندية كلّها. وتأتي بعد ذلك أريانا، والخليج الفارسي، والخليج العربي، ثمّ العربية نفسها وبلاد التروغلوديتيين. إن تلك كانت قصص الرياح، والأمطار، وفيضانات الأنهار على السهول.

26- وإذ أتحدّث عن الأنهار ينبغي عليّ أن أدخل في بعض التفاصيل، بقدر ما

يكـون هـذا مجـدياً بالنسـبة للجغرافيـا ، وبقـدر مـا حصـلت عليـه مـن معلومـات عنهـا. فالأنهار كشكل من أشكال الحدود الطبيعية التي تحدّد شكل البلدان وحجمها ، صالحة جدّاً لأغراض وصفنا الراهن. وللنيل وأنهار الهند ميزة معيّنة أمام الأنهار الأخرى ، فهذان البلدان لولا هذه الأنهار لما كانا صالحين للملاحة والعمل الزراعي ، ولما كانا بالتالي مسكونَيْن بالبشر كما هما الآن؛ ولكان الانتقال فيهما غير ممكن. ومن أشهر الأنهار نهر الهندوس؛ والبلدان التي تتدحرج فيها أمواجها معروفة لنا ؛ أمّا فيما يخصّ الأنهار الأخرى ، فما نعرفه عنها أقلّ مما لا نعرفه. وكان الإسكندر قد عمل أكثر من جميعهم لاكتشاف هذه الأصقاع. ففي أوّل الأمر ، عندما عزم قتلة داريوس (الذين قتلوه غدراً) على إعلان الانتفاضة في باكتريانا ، قرر الإسكندر أنه من الأفضل ملاحقتهم والقضاء عليهم. ولهذا السبب اقترب من الهند عبر أريانا ؛ وإذ ترك الهند على يمينه ، عبر باروباميس إلى المناطق الشمالية ومنها إلى باكتريانا. وبعد أن أخضع كلّ الأراضي التابعة للفرس هناك (بل أكثر منها) ، عزم لأوّل مرّة على الاستيلاء على الهند ، لأنّ كثيراً من مرافقيه[18] كانوا قد وصفوا له هذه البلاد ، وإن لم يكن وصفهم لها واضحاً. وعلى هذا النحو رجع عبر الجبال نفسها ، ولكن في طريق أقصر ، جاعلاً الهند على يساره في هذه المرّة؛ وانعطف بعد ذلك مباشرة نحو الهند ، إلى حدودها الغربية ، إلى نهر كوفا ، ونهر هواسب الذي يصبّ في نهر كوفا قرب مدينة بليميري ، ثمّ يمرّ بعد ذلك قرب مدينة غوريدا ماراً بعدها عبر باندوبينا وغانداريتيدا. وقد علم الإسكندر أن المنطقة الجبلية والمنطقة الشمالية هما الأكثر سكّاناً وخصوبة ، أمّا المنطقة الجنوبية فعلى العكس ، لأنّ جزءاً منها ليس فيه ماء ، والجزء الآخر يتعرّض للفيضانات وتحرقه أشعة الشمس تماماً ، ولذلك فهو أكثر ملاءمة لعيش الوحوش منه لعيش البشر. ومهما كان الأمر ، إلاّ أن الإسكندر بدأ حملته بهدف الاستيلاء على هذه البلاد الشهيرة أوّلاً ، آملاً في الوقت نفسه أن يكون عبور الأنهار التي كان قد اجتازها أفضل عند منابعها ، لأنها كانت تجري بشكل عرضانيّ لتقطع البلاد التي أراد هو أن يخترقها. وقد سمع في الوقت نفسه أن بعض الأنهار يلتقي في مجرى واحد ، فتصبح أكبر وتجري أبعد بحيث يغدو عبور البلاد أكثر صعوبة ، خاصة في ظلّ نقص أعداد السفن. وخشية ذلك عبر الإسكندر نهر كوفا وشرع بإخضاع المنطقة الجبلية التي تتّجه شرقاً.

27- ويأتي بعد كوفا الهندوس ، وهيداسب ، وأكيسين ، وهياروتيدا ، وأخيراً

هيبانيس. وقد أعاق الإسكندر عن التقدم أكثر أوّلاً، احترامه لبعض المتنبّئين، ثانياً، كان مرغماً على إيقاف زحف قواته التي ما عادت قادرة على تحمّل صعوبات الحملة. وأكثر ما أرهق الجنود، هو الرطوبة وتواصل هطول الأمطار الشديدة الغزارة. وعلى هذا النحو تكون قد باتت معروفة لنا من أصقاع شرقي الهند كلّ المناطق الواقعة على هذا الجانب من هيبانيس، بل وبعض الأراضي الواقعة وراءه، وقد أضاف معلومات عنها أولئك الذين توغلوا إلى هناك بعد الإسكندر، فتجاوزوا هيبانيس ووصلوا حتّى الهندوس، وباليبوفرا. وبعد كوفا يجري الهندوس. ويشغل الأستانكينيون، والماسيانيون، والنيسيون، والهيباسيون المناطق الواقعة بين هذين النهرين. وتأتي بعد ذلك بلاد أسّاكان حيث تقع مدينة ماسوها عاصمة هذه البلاد. وتلي ذلك عند الهندوس مباشرة مدينة أخرى، بيوكولايتيدا التي بنوا جسراً على مقربة منها، وعَبْر هذا الجسر عَبَر الإسكندر بقوّاته.

28- وبين الهندوس وهيداسب تقع تاكسيلا، وهي مدينة كبيرة لها قوانين رائعة، وتحيط بها ضاحية شاسعة تربتها خصبة وتتّصل مباشرة بالسهول. لقد استقبل السكّان وملكهم هنا الإسكندر استقبالاً ودّياً، فتلقوا منه لقاء ذلك الودّ هدايا أكثر من التي قدموها له، فأثار ذلك غيرة المقدونيين حتّى أنهم قالوا: يبدو أنه لم يكن لدى الإسكندر من يحسن إليه قبل عبوره الهندوس. وقد زعم بعض الكتّاب إنّ هذه البلاد أكبر من مصر. وفوق هذه البلاد، في الجبال، تقع بلاد أبيسار، الذي قال الشعراء الذين جاؤوا من عنده، إنه يقتني ثعبانين طول أحدهما 80 ذراعاً، وطول الآخر 140 ذراعاً، كما يقول أونيسيكريتيس. وعلى الأغلب إنه ينبغي أن يدعى هذا الأخير الربّان الرئيس للخزعبلات، وليس الربّان الرئيس لدى الإسكندر. فمع أنّ مرافقيّ الإسكندر كلهم كانوا يفضلون فعلاً الاستماع إلى القصص الخرافية بدلاً من الروايات الحقيقية، إلاّ أنه يبدو أنّ أونيسيكريتيس قد فاق جميعهم في ميدان الخرافات. بيد أنه على وجه العموم ينقل أشياء يمكن أن تكون معقولة، وتستحقّ الذكر، ولذلك حتّى الذي لا يصدّقه لا يستطيع أن يتجاهل رواياته. وعلى أيّ حال فإنّ كتّاباً آخرين تحدّثوا عن الثعابين، وقالوا إن الهنود يصيدونها في الجبال الإيمودية ويحتجزونها في الكهوف.

29- وبين هيداسب وأكيسين تقع بلاد بور، وهي بلاد شاسعة وخصبة؛ فيها ما يقارب 300 مدينة، وعلى مقربة من الجبال الإيمودية تمتدّ الغابة التي أمر الإسكندر أن

تُقطع منها كمّية كبيرة من الشوح، والصنوبر، والأرز وسوى ذلك من مختلف أنواع الأخشاب الصالحة لبناء السفن، وتعويمها إلى هيداسب؛ وبنى من هذه الأخشاب أسطولاً على نهر هيداسب قرب المدن التي كان قد بناها على ضفّتي النهر، وحيث هزم بور فور عبوره إياه. وقد دعا واحدة من تلك المدن بوكيفاليا، على اسم حصانه الذي سقط في المعركة مع بور (لقد كان الحصان يدعى بوكيفالوس[19]، لأنّ مقدّمة رأسه كانت عريضة؛ وكان هذا جواداً حربياً ممتازاً كان الإسكندر يخرج عليه إلى المعارك دائماً)؛ ودعا المدينة الثانية نيقيا، على شرف النصر الذي حقّقه. وبحسب الحكايات، أن الغابة المذكورة فيها أعداد كبيرة من القردة المهولة الحجم التي لها ذيل[20]، ولذلك عندما رآها المقدونيون يوماً مصطفّة في أنساق قتالية على تلال عارية (لأن هذه الحيوانات تمتلك عقلاً بشرياً لا يقل عن ذلك الذي تملكه الفيلة)، هُيِّئ لهم أن أمامهم قوات من البشر. فاندفعوا ضدّ القردة كاندفاعهم لمهاجمة الأعداء، ولكن ما إن عرفوا الحقيقة من تاكسيل (الذي كان حينئذٍ عند الإسكندر)، حتّى توقفوا. وعادة ما يصيدون هذه الحيوانات بطريقتين. فهذا القرد يهوى المحاكاة ويلجأ هارباً من الأخطار إلى أعالي الشجر. وإذ يراها الصيادون جالسة هناك، يضعون على مرآى منها وعاء فيه ماء ويغسلون أعينهم به. ثمّ يستبدلون بالماء كأساً من الصمغ ويبتعدون قليلاً ليراقبوا القردة عن بعد. وما أن تقفز هذه من فوق الشجرة وتطلي أعينها بالصمغ ثمّ ترمش كالمعتاد حتّى تلتصق أجفانها، عندئذٍ يأتي الصيادون ويصيدونها حيّة. وهذه هي إحدى طريقتي صيد القردة، ولكن هناك طريقة أخرى يرتدي فيها الصيادون أكياساً تشبه السراويل، ويأخذون ناحية جانبية تاركين أكياساً أخرى مطلية من الداخل بالصمغ. وعندما ترتدي القردة هذه الأكياس، يغدو اصطيادها سهلاً.

30- ويوضّع بعضهم بين هذين النهرين كافييا وبلاد سوبيف، أحد الحكّام المحلّيين، بينما يوضّع آخرون هنا المنطقة الممتدة على ذلك الجانب من نهر أكيسين ونهر هياروتيدا والمجاورة لبلاد بور آخر هو ابن عم بور الذي أخذه الإسكندر أسيراً. وتدعى البلاد الخاضعة لحكمه هانداريدا. ويروى عن كافييا أن سكّانها يقدّرون عالياً جمال الخيل والكلاب. ويقول أونيسيكريتيس، إنهم يختارون أجمل شخص ملكاً، ويصدرون أحكاماً علنية بحق كلّ مولود يبلغ الشهر الثاني من عمره يحدّدون فيها ما إذا كان يتمتّع بمستوى الجمال الذي يحدّده القانون وهل يستحقّ العيش أم لا.

ووفق الحكم الصادر عن الموظف المكلّف بهذا الأمر، يبقى الطفل على قيد الحياه أو يقتل. ويلوّن رجال هذه البلاد لحاهم بألوان متنوّعة لكي يظهروا أكثر جمالاً. ويلتزم هذه العادة التزاماً دقيقاً كثير من الهنود الآخرين (لأن بلادهم تنتج ألواناً بديعة)، فيلوّنون شعرهم وثيابهم. وعلى الرغم من أنّ السكّان يتميّزون على وجه العموم بالبساطة، إلاّ أنّهم يحبون التزيّن إلى حدّ الولع. ويروى عن عادة شائعة لدى الكافيين هي الآتية: يختار العريس والعروس بعضهما بعضاً، وتحرق الزوجة مع الزوج المتوفّى، لأنهم يزعمون أن الزوجات وبسبب عشقهن شباباً، كنّ يهجرن أزواجهن أو يدسسن لهم السم فيقتلنهم. وقد أقرّ الكافييون هذا القانون سعياً منهم لوضع حدّ لسلوك الزوجات هذا. وعلى أيّ حال فإن مثل هذه الحكايات، سواء عن القانون نفسه أو عن سبب إقراره، ليست سوى حكايات لا تستحقّ الثقة. ويروى أنّ في بلاد سوبيف جبل يحتوي على كميات من الملح الصخري تكفي الهند كلّها. وليس بعيداً عنه، في جبال أخرى، مناجم ذهب وفضّة ذائعة الصيت، كما يؤكّد المعدّن الشهير هورغ. وبما أنّ خبرة الهنود في التعدين وصهر المعادن ضعيفة، لذلك فهم يديرون العمل في هذا الميدان بإسراف؛ كما أنهم لا يعرفون الكثير عن ثروات بلادهم.

31- ويتحدّثون عن شجاعة كلاب بلاد سوبيف الفائقة. فيروى أن الإسكندر تلقّى 150 كلباً هدية من سوبيف، وفي إطار اختبار شجاعتها أثاروا اثنين منها على أسد؛ ولمّا هزمهما الأسد أثاروا اثنين آخرين ضده، عندئذٍ تعادلت قوى الخصوم فأمر سوبيف بإخراج أحد الكلبين من المعركة بسحبه من قدمه، وإذا عاند، تقطع رجله. وفي بادئ الأمر تعاطف الإسكندر مع الكلب ولم يوافق على قطع رجله؛ ولكن بعد أن قال له سوبيف أنه سيعطيه بدلاً منه أربعة كلاب وافق الملك وأجاز أن تقطع رجله ببطء قبل أن يهاجم ضحيته وينهشها.

32- لقد كان القسم الأكبر من الطريق إلى هيداسب يتّجه جنوباً، ومن هناك إلى هيبانيس تتّجه أكثر نحو الشرق؛ وعلى وجه العموم كانت الطريق تمتدّ على سفوح المرتفعات أكثر منها عبر السهول. ومهما كان الأمر، إلاّ أنّ الإسكندر قفل عائداً إلى هيداسب وإلى المحطة الشراعية التي بنى فيها أسطوله، ثمّ أبحر في هيداسب. إن الأنهار التي ذكرناها تصبّ كلّها في نهر واحد هو نهر الهندوس، وهيبانيس آخرها. ويقولون، إنّ مجموع روافد الهندوس 15 رافداً لها أهميتها. وبعد أن يستقبل النهر مياه هذه الروافد كلّها، يتسع في بعض المواقع ليبلغ عرضه بحسب

الكتّاب الذين لا يتقيّدون بالمعايير 100 مرحلة، وبحسب الكتّاب الأكثر حرصاً 15 مرحلة، والتقدير الأقلّ 7 مراحل (يعيش قرب هذا النهر كثير من الأقوام، ويقع عليه كثير من المدن)، ثمّ يصبّ النهر بعد ذلك في البحر الجنوبي عبر مصبّين، مشكلاً جزيرة تدعى باتالينا. لقد اتخذ الإسكندر قراره[21] وامتنع عن التوغل في المناطق الشرقية، أوّلاً، لأنّ عقبات واجهته في عبور هيبانيس، ثانياً، لأنّ تجربته أقنعته بعدم صحّة الشائعات التي كان فيما مضى يوليها أهمية، من قبيل الشائعة التي تقول، إنّ الشمس تحرق المناطق السهلية وإنّ هذه تلائم أكثر ما تلائم عيش الوحوش وليس عيش البشر. ولهذا دخل الإسكندر المناطق السهلية عازفاً عن المناطق الشرقية، فغدت الأولى معروفة لنا أكثر من الثانية.

33- وبحسب الروايات أن الأراضي الواقعة بين هيبانيس وهيداسب تشغلها تسع قبائل، وأن فيها 5000 مدينة، وكلّها ليست أصغر من كوسوس التي في ميروبيدا؛ ولكن من الواضح أن هذا الرقم مبالغ فيه. وأنا كنت قد تحدّثت عن البلاد الواقعة بين الهندوس وهيداسب[22]، وأشرت إلى ما يستحقّ الذكر من الشعوب التي تسكن هناك. وبعدها نحو الأسفل يعيش الذين يدعونهم سيبيين (وكنت قد ذكرتهم أيضاً)[23]، ومالّيين، وسيدراكيين، وهؤلاء قبائل كبيرة. وفي أرض المالّيين تعرّض الإسكندر لخطر قاتل بينما كان يعاني من جرح تلقّاه لدى الاستيلاء على إحدى المدن الصغيرة. وأنا كنت قد قلت عن السيدراكيين[24] إنّ الأساطير تقدّمهم أقارب ديونيسيوس. ويقولون، إن بلاديّ موسيكان وساب تقعان على مقربة من باتالينا نفسها، وتقع هناك أيضاً بلاد السيندومانيين، وكذلك بلاد بورتيكان وسواها من بلدان الذين يعيشون على امتداد منطقة الهندوس (وقد هزمهم الإسكندر كلهم). والمنطقة الأخيرة، هي باتالينا التي يشكلها الهندوس الذي ينقسم إلى مصبّين. وبحسب أريستوبول، أن هذين المصبّين يبعد واحدهما عن الآخر 1000 مرحلة. ويزيد نيارخس على هذا الرقم 800 مرحلة أخرى. ويحدّد أونيسيكريتيس كلّ ضلع من أضلاع الجزيرة المثلثة الشكل المحصورة بينهما بألفي مرحلة، وعرض النهر في النقطة التي يتفرّع فيها إلى مصبّين بما يقارب 200 مرحلة. وهو يدعو الجزيرة دلتا، لكنّه يخطئ إذ يعدّها كالدلتا المصرية من حيث الحجم. ففي واقع الأمر يعتقدون أن قاعدة الدلتا المصرية 1300 مرحلة، وأن كلّ ضلع من أضلاعها أصغر من القاعدة. وفي باتالينا مدينة كبيرة، هي باتالا التي دعيت الجزيرة باسمها.

34- وبحسب أونيسيكريتيس أن القسم الأكبر من شاطئ هذا الجزء من العالم مياهه ضحلة، خاصة عند مصب الأنهار، بسبب الترسبات التي تحملها، وبسبب وجود المضائق، وعدم وجود الرياح التي تهبّ من اليابسة؛ ففي أكثر هذه المناطق تغلب الرياح التي تهبّ من عرض البحر. ويتحدّث أونيسيكريتيس بالتفصيل عن بلاد موسيكان مادحاً ميزاتها الكثيرة التي تنسب الآن إلى مناطق هندية أخرى؛ فهو يتحدّث مثلاً، عن طول عمر السكّان هنا، لأنهم يعيشون 30 عاماً فوق 100 عام (وعلى أيّ حال فإنّ بعضهم يزعم أن السيريين أطول عمراً من هؤلاء)، كما يتحدّث عن بساطة العيش، وعافية الناس، مع أن البلاد تتميّز بوجود وفرة من شتّى الغلال. ويتميّز السكّان هنا بإقامة موائد مشتركة على غرار الموائد اللاكونية، وتقام هذه الموائد على نفقة المجتمع، أمّا اللحوم فتوفرها لهم طرائد الصيد. ولا وجود للذهب والفضّة في ميدان التداول عندهم، مع أن مناجم هذين المعدنين موجودة في البلاد. وبدلاً من العبيد يخدمهم فتيان في ريعان الشباب، على غرار الأثاميوتيس عند الكريتيين، والإيللوت عند اللاكونيين[25]. ولا يعملون بالعلوم بإسهاب، ما عدا الطّب، لأنهم يرون أنّ الاستغراق في ممارسة بعض العلوم جريمة، كما هي الحال في العسكرية وما في حكمها. ولا وجود للمحاكمات القضائية عندهم إلاّ تلك المتصلة بجرائم القتل، وتوجيه الإهانات، لأنّ التعرّض لمثل هذه المحن أمر خارج عن إرادة الإنسان؛ أمّا الأذى الذي يلحق بالآخر في ميدان علاقات العمل، فهو مرتبط بالشريك مباشرة، ولذلك ينبغي إحلال الصلح عندما يسيء أحدهم استغلال ثقة الآخر، وأخذ الحذر والحيطة لدى اختيار ذلك الذي يمكن الوثوق به، وعدم إغراق المدينة بالدعاوى القضائية. تلك هي قصص الذين شاركوا في حملة الإسكندر.

35- وكانت قد ذاعت رسالة ما أرسلها كراتير إلى والدته أريستوباترا، وقد تضمّنت الرسالة من بين الأخبار المستحيلة الكثيرة الأخرى التي لا تتوافق مع أيّ مصدر آخر، قصة مفادها أن الإسكندر وصل إلى الغانج. ويزعم كراتير أنه رأى هذا النهر بأمّ عينه، وشاهد الحيوانات النهرية الضخمة عليه؛ وأبعاد النهر من حيث العرض والعمق بعيدة عن الواقع أكثر مما هي قريبة منه. فكلّهم متفق فعلاً على أنّ الغانج هو أكبر الأنهار المعروفة لنا في أجزاء الكون الثلاثة، بعده الهندوس، ويأتي في المكانين الثالث والرابع، نهر الإيستر ونهر النيل. أمّا فيما يخصّ التفاصيل فإن مختلف الكتّاب ينقلون روايات مختلفة عنه. فمنهم من يرى أنّ أقلّ عرض له هو 30 مرحلة، ومنهم من

يقول 3 مراحل فقط؛ وبحسب ميغاسفين أن متوسّط عرضه يصل إلى 100 مرحلة، وأن أقلّ عمق له 20 أورغيا.

36- ولدى التقاء الهندوس بنهر آخر[26]، تقع كما يقولون، باليبوفرا: طولها 80 مرحلة وعرضها 15 مرحلة، وهي على شكل متوازي الأضلاع؛ ويحيط بالمدينة سياج من العوارض الخشبية فيه فتحات يمكن رمي السهام عبرها. ويمتدّ أمام السياج خندق يستخدم لأغراض الدفاع عن المدينة، كما يستخدم أيضاً مجرى للقاذورات التي تخرج منها. وتدعى القبيلة التي تقع هذه المدينة في منطقتها، قبيلة براسي؛ وهي القبيلة الألمع بين القبائل الأخرى كلّها. وينبغي على الملك هنا أن يحمل إضافة إلى الاسم الذي دعي به لدى ولادته، اسماً آخر، هو اسم المدينة نفسه: باليبوفرا، كساندروكوت مثلاً، الذي أرسل إليه ميغاسفين[27] سفيراً. ويسود مثل هذا التقليد لدى البارثيين أيضاً؛ فملوك هؤلاء كلّهم يدعون أرساك، مع أن اسم أحدهم، هو أورود، واسم الآخر فرآت، واسم الثالث فلان، و...

37- والرأي السائد هو أن كلّ البلاد الواقعة على هذا الجانب من هيبانيس، هي الأفضل، لكننا نفتقر إلى أيّ وصف دقيق لها. أمّا المعلومات التي نقلها الكتّاب، فهي مبالغ فيها وتحمل طابعاً خيالياً سببه عدم معرفة البلاد وبعدها النائي عنّا. ومن هذا النمط مثلاً، قصص النمل[28] الذي يحفر الذهب، وسوى ذلك من المخلوقات- حيوانات وبشر - الفريدة من حيث شكلها الخارجي، والغريبة تماماً من حيث بعض معطياتها الطبيعية. فيروون مثلاً، عن عمر السيريين المديد، ويقولون إن هؤلاء يمدّون زمن حياتهم إلى ما بعد 200 عام. ويتحدّثون عن البناء الأرستقراطي لدولة محلّية إلى حدّ ما، لكنّ المجلس الحاكم فيها يتألّف من 5000 مستشار؛ يقدّم كلّ منهم فيلاً للدولة. وعلى حدّ قول ميغاسفين، إنّ أكبر النمور تسرح في بلاد البراسيين، إذ يبلغ حجم واحدها ضعف حجم الأسد؛ وهذه النمور قوية إلى درجة أن أحد النّمور المنزلية المروّضة، وعلى الرغم من أن أربعة رجال كانوا يقودونه، إلاّ أنه قبض على بغل من أحد أطرافه الخلفية وشدّه إليه عنوة. والقردة ذوات الذيل[29] هناك أكبر من أكبر الكلاب؛ لونها أبيض ما عدا خطمها أسود (عند القردة الأخرى على العكس). طول ذيل واحدها أكثر من ذراعين؛ وهذه القردة قردة داجنة تماماً وليست خطرة، بمعنى أنها ليست عدوانية. ويقتلعون من الأرض هناك حصى بلون البخور، طعمها أكثر حلاوة من طعم التين والعسل. وتسعى في أماكن أخرى ثعابين طول واحدها ذراعان ولها

أجنحة غشائية كأجنحة الخفافيش؛ وتطير هذه ليلاً فتتساقط قطرات بولها، أو حتّى قطرات عرقها، الأمر الذي يتسبب بتقرّحات جلدية لكلّ من لا يحذر ذلك. كما تلقى هناك أيضاً عقارب مجنّحة كبيرة الحجم؛وكذلك تنمو في تلك الأصقاع شجرة الأبنوس، وتعيش فيها كلاب جبّارة تمسك فريستها بأنيابها ولا تتركها حتّى يسكبون في أنوفها ماء؛ وبعضهم، بسبب السعار لدى عضّ الكلب له تنقلب عيناه، بل قد تسقطان أحياناً من محجريهما. ومرّة أمسك كلب بأسد وثور، أمّا الثور الذي كان الكلب قد أمسك به من خطمه، فقد فارق الحياة قبل أن يتسنّى له التخلّص من أنياب الكلب.

38- ويواصل ميغاسفين روايته فيقول، إنّ في البلاد الجبلية نهر يدعى سيلا لا يطفو على سطح مياهه أيّ شيء. ولكنّ ديموقريط لم يصدّق هذا (وكان هذا قد جاب الشطر الأكبر من آسيا). وكذلك أرسطو لم يقبل هذا؛ على الرغم من أن الهواء يحتوي على طبقات دقيقة إلى درجة يعجز عندها أيّ كائن مجنّح أن يثبت عليها. وبعض [المواد] التي تطلق أبخرة، تملك أيضاً خاصية جذب أيّ مواد تحلّق فوقها وابتلاعها: كالكهرمان الذي يجذب العصافة، والمغناطيس الذي يجذب الحديد. وقد تكون مثل هذه الخاصيات الطبيعية للماء أيضاً. وعلى وجه العموم ينتمي هذا كلّه إلى حدّ ما، للفلسفة الطبيعية، وللتعاليم التي تدرس الأجسام العائمة، وينبغي أن يعالج هناك. أمّا فيما يخصّ وصفنا فيجب أن نغنيه بكلّ ما ينتمي إلى ميدان الجغرافيا أو يقترب منه.

39- وبحسب ميغاسفين أنّ سكّان الهند كلّهم ينقسمون إلى 7 أقسام. القسم الأوّل بحسب الأهلية، لكنّه الأقلّ عدداً، وهو كاستا الفلاسفة. ويتعاملون معهم بطريقتين: مع كلّ منهم بشكل خاص، ويتوجه إلى هؤلاء كلّ من يريد أن يقدّم ذبيحة للآلهة أو الأموات؛ ومع الكاستا كلّها على وجه العموم، وإليها يتوجه الملوك فيما يدعى المجلس العظيم؛ فيجتمع هنا عند بوابات القصر الملكي الفلاسفة كلّهم في بداية كلّ عام جديد. فيقدّم كلّ منهم علانية، مؤلّفه أو مطالعته التي تفيد مضاعفة محصول الغلال، أو إخصاب الحيوانات، أو إذا كانت تتعلّق بتحسين إدارة الدولة. ومن يثبت عليه الكذب ثلاث مرّات، ينبغي أن يصمت طول عمره؛ ومن يظهر أنه صادق، يعفى من الإتاوات والضرائب.

40- والقسم الثاني، كما يقول ميغاسفين، هو كاستا الفلاحين. وهي الفئة الأكثر عدداً، والمرئية أكثر بين باقي فئات السكّان الأخرى، لأنّ أفرادها معفيون من الخدمة العسكرية، ويتمتّعون بحرية العمل بسلام في الحقول. ولا يأتي هؤلاء إلى

المدينة معاً أبداً، لا من أجل المسائل العامّة، ولا من أجل أيّ مسائل أخرى. وبحسب قوله إنه ليس نادراً أن يصطفّ الجنود في مكان واحد، وفي وقت واحد متخذين الوضع القتالي مخاطرين بحياتهم في قتال الأعداء، بينما يحرث الفلاحون الأرض ويحفرون فيها بأمان تحت حراسة الجنود. والأرض كلّها هناك ملك للملك. أمّا الفلاحون فيعملون فيها لقاء ريع يساوي ربع المحصول(30).

41- والقسم الثالث، هو كاستا الرعاة والصيادين الذين يجوز لهم وحدهم أن يصيدوا ويربّوا المواشي، ويبيعوا حيوانات النقل أو يؤجّروها. ويتلقى هؤلاء من الملك جعالة سنوية من الأقماح لقاء حماية الأرض من الكواسر والطيور التي تلتهم البذار، ويعيش هؤلاء متنقلين يقيمون في الخيام. ولا يسمح لأيّ فرد كان أن يقتني جواداً أو فيلاً بشكل شخصي، فالجياد والفيلة ملكية خاصة للملك، إذ يوكل لمتخصصين العناية بها.

42- وتصاد الفيلة على النحو الآتي: يحيطون مكاناً خالياً من النباتات محيطه 4 أو 5 مراحل، بخندق عميق، ويجعلون مدخله ضيقاً جدّاً. ثمّ يسوقون ثلاثاً أو أربعاً من أكثر الإناث وداعة، أمّا الصيادون أنفسهم فيربضون في مكمن، في أكواخ مخفية. ولا تقترب الفيلة البرية من الحظيرة نهاراً، لكنّها تدخلها ليلاً فرادى. وبعد أن تدخل الفيلة الحظيرة يتسلل الصيادون خلسة ويغلقون مدخلها، ثمّ يطلقون إلى هناك أقوى الفيلة المقاتلة المروّضة، ويرغمونها على مقاتلة الفيلة البرّية، وفي الوقت نفسه ينهكونها جوعاً. وعندما يدبّ الضعف في الفيلة، يدخل الحظيرة خلسة أكثر صيادي الفيلة شجاعة، ويدبّ كلّ منهم تحت بطن الفيل الذي يمتطيه، ويدبّ من هناك إلى تحت بطن الفيل البري ويقيّد أرجله. ثمّ يدفع الصيادون الفيلة المروّضة لضرب الفيلة المقيّدة إلى أن تسقط هذه الأخيرة على الأرض. عندئذٍ يربط الصيادون رقاب الفيلة البرية إلى رقاب الفيلة المروّضة بأحزمة مصنوعة من جلد الثيران. ولكي يأمن الصيادون جانب الفيلة كي لا تقذف بهم عندما يحاولون امتطاءها، كانوا يجرحون رقابها ويضعون أحزمة الربط على الجراح مباشرة فيرغم الألم الفيلة على تحمّل الأغلال والبقاء ساكنة. ومن بين الفيلة التي يصيدونها يستبعد الصيادون تلك التي لا تصلح للعمل بسبب كبر سنّها أو صغر سنّها، ويقودون الباقي إلى المرابط. وهنا يعقلونها، ويربطونها من رقابها إلى أعمدة مغروزة في الأرض بقوة ويروّضونها بتجويعها. ويجددون بعد ذلك قوى هذه الحيوانات بتغذيتها بالقصب الأخضر والعشب. ثمّ يعلّمون الفيلة

الخضوع لأوامرهم: بعضها بأوامر منطوقة كلمات، وبعضها الآخر غناء موقّعاً على أصوات دقّ الدفوف. وقليل من الفيلة فقط لا يستجيب لعملية الترويض؛ والحقيقة أن هذه الحيوانات وديعة ولطيفة بطبيعتها، وهي في هذا تشبه المخلوقات العاقلة. فثمّة فيلة تنقذ حوذييها الجرحى وتخرج بهم من أرض المعركة بعد أن يكون نزف دمائهم قد أفقدهم الوعي، وفيلة أخرى تنقذ المقاتلين الذين يدبّون بين أطرافهم الأمامية وتحميهم. وإذ صادف وقتل الفيل مطعمه أو مروّضه نتيجة ثورة غضب تلمّ به، فإنه سرعان ما يدخل في حالة حزن شديد، ويمتنع عن تناول أيّ طعام، بل وأحياناً يموت جوعاً.

43- وتتزاوج الفيلة وتضع مواليدها في غالب الأحيان في الربيع، مثلها مثل الخيل. فعندما يحين موعد زواج الذكر، يغدو شديد العدوانية مسعوراً. ويطلق حينئذٍ عبر فتحاته التنفسية الموجودة قرب صدغيه، مادّة دهنية. والأمر عينه يحصل لدى الإناث، فتنفتح عندئذٍ الفتحة إياها. وتحمل الإناث أجنّتها 18 شهراً كحدّ أقصى، و16 شهراً كحدّ أدنى، وترضع الأمّ مولودها 6 سنوات. ويعيش أكثر الفيلة بقدر ما يعيش أكثر المعمّرين من البشر، بل قد يصل عمر بعض الفيلة إلى 200 عام. لكنّ الفيلة تصاب بأمراض كثيرة بالكاد يمكن علاجها. فعلاج أمراض العين غسيلها بحليب البقر؛ ويفيد شرب النبيذ الأسود في معالجة الأمراض الأخرى كلّها؛ وتستخدم الزبدة البقرية المدفّأة لمعالجة الجروح (لأنها تخرج الشظايا الحديدية من الجسم)، أمّا الدمامل فيطرّونها بقطع من لحم الخنزير. وبحسب أونيسيكريتيس أن الفيلة تعيش 300 عام، وفي حالات نادرة 500 عام. وهي تبلغ أوج قوّتها في حوالي عامها 200؛ والإناث تستطيع أن تنجب طول عقد كامل. كما يزعم آخرون، وليس أونيسيكريتيس وحده، أنّ الفيلة الهندية أكبر من الليبية وأقوى. فهي إذ تقف على طرفيها الخلفيين، تقلب بخرطومها تروس الأبراج، وتقتلع الأشجار من جذورها. ويروي نيارخس أنهم لدى صيد الفيلة يضعون أفخاخاً على عدد من تقاطعات الطرق، ويسوقون الفيلة البرية إلى هناك بالفيلة المروّضة، لأنّ هذه الأخيرة أكثر قوة ويوجهها حوذيون. عدّاك عن هذا إنّ الفيلة تروّض بسهولة، حتّى أنهم يعلّمونها أن ترمي الحجارة على هدف معيّن، وتستخدم السلاح؛ وهي تجيد السباحة إجادة تامّة. ويرى الهنود في المركبة التي تجرّها الفيلة أعظم ثروة. والفيلة كالجمال تحمل على متونها هوادج، وتشعر المرأة بالعزّة إذا تلقت من الرجل الذي يحبها فيلاً هدية. ولكنّ هذه الرواية لا تتوافق مع ما ينقله الكاتب الذي يقول، إن الفيلة والأفراس كانت ملكية للملك وحده[31].

44- ويزعم نيارخس أنه رأى جلود النمل الذي يحفر الذهب، وهي تشبه جلود النمور. أمّا ميغاسفين فيروي عن هذا النمل ما يلي: في بلاد الديرديين،وهم قبيلة هندية كبيرة تعيش في الجبال الشرقية، منطقة مرتفعات يقارب محيطها 3000 مرحلة. وتحت هذه المرتفعات مناجم ذهب حفّاروها نمال، وهؤلاء حيوانات لا يقل حجم واحدها عن حجم الثعلب؛ وتتميّز بسرعة حركة غير عادية، وتعيش على صيد الوحوش. وفي فصل الشتاء تحفر هذه الحيوانات الأرض وتجمع التراب أكواماً عند مداخل جحورها، كما يفعل الخلد. وهذه الأتربة هي رمال ذهبية لا يلزمها سوى بعض الصهر. ويأتي سكّان الجوار وراء هذا الرمل خلسة على حيوانات النقل؛ لأنهم إذا فعلوا ذلك علانية، فإن النمّال ستقاتلهم بعناد وتلاحق الفارّين؛ وإذا ما أدركتهم، فانها تقتلهم مع حيوانات النقل. ولكي لا تلاحظ النمّال وجودهم، ينثر المختلسون قطعاً من لحوم الحيوانات البرية في أماكن مختلفة، وعندما يتفرّق النّمل متراكضاً وراء هذه الغنيمة، يحمل هؤلاء الرمال الذهبية ويغادرون المكان. ولمّا كانوا لا يعرفون أن يصهروا الذهب، فقد كانوا يبيعون رماله للتجار بأيّ ثمن كان.

45- وبما أنني سقت في قصة الصيادين والوحوش البرية، رواية ميغاسفين وروايات الآخرين، فإنه ينبغي عليّ أن أضيف ما يلي أيضاً. يستغرب نيارخس كثرة الزواحف في الهند وشدّة الأذى الذي تتسبب به. فيقول، إن الحيوانات تترك الوديان هاربة وقت الفيضان وتلجأ إلى القرى التي لا يطالها الفيضان، حيث تملأ المساكن هنا. ولهذا السبب يتأتّى للسكّان أن يبنوا مساكنهم على المرتفعات لكنّهم كانوا يتركونها أحياناً عندما يصل طوفان الزواحف حدّاً لا يحتمل. وإذا لم يهلك الفيضان أكثرهم، فإن البلاد تتحوّل إلى قفار خاوية. وعلى أيّ حال فإن بعض أنواع الزواحف الصغيرة شديدة الأذى كتلك العظيمة الحجم؛ لأنّ تفادي الأولى أمر صعب، والثانية قوية جدّاً، خاصة هناك حيث الثعابين التي يصل طول واحدها إلى 16 ذراعاً. ولذلك يجوب رقاة الثعابين في مختلف أرجاء البلاد، والناس تؤمن بقدرتهم على مداواة لدغاتها؛ وتبقى هذه الوسيلة هي وسيلة المداواة الوحيدة تقريباً. فالشعب لا يعاني من كثرة الأمراض؛ بسبب بساطة عيشه وامتناعه عن استهلاك النبيذ. وإذ ما ظهرت الأمراض فإن الحكماء يعالجونها. فاريستوبول يقول العكس، إنه لم ير حيواناً واحداً بهذا الحجم المهول غدا مادّة للأقاويل، ما عدا ثعباناً واحداً طوله 9 أذرع وشبر واحد. وأنا نفسي رأيت في مصر بأمّ عيني ثعباناً بالحجم نفسه تقريباً، كانوا قد جاؤوا به من

الهند. ويقول أريستوبول، إنّ هناك كثيراً من الحيات والأحناش أصغر حجماً بكثير، وهناك عقارب كبيرة. لكنّ أياً من هذه الزواحف ليس مزعجاً كالثعابين الرفيعة التي لا يتجاوز طول واحدها شبراً واحداً. فيعثرون عليها مختبئة في الخيام بين الأشياء، وفي الجدران. ويعاني الذين تلدغهم هذه الثعابين معناة مضنية من نزيف الدم الذي يسيل من المسامّ كلّها، ثمّ يموت الملدوغ إذا لم يحظ بمساعدة فورية. والمساعدة سهلة توفّرها الخاصيات الدوائية للجذور والنباتات الهندية. ويواصل أريستوبول روايته فيقول، إن التماسيح في الهند قليلة، ولا تمثّل خطراً بالنسبة للإنسان؛ وباقي الحيوانات هناك أكثرها هو الموجود على نهر النيل نفسه، ما عدا فرس النهر. وعلى أيّ حال فإن أونيسيكريتيس يزعم، أنّ هذا الحيوان أيضاً، موجود هناك. وبحسب أريستوبول أن أي سمك بحريّ لا يدخل النيل بسبب وجود الحيتان فيه، ما عدا الفريسّي[32]، والكيستيري[33]، والدلفين[34]، أمّا الهندوس ففيه كثير من أنواع الأسماك البحرية. وتصعد صغار الكاريدس[35] في الهندوس حتّى منطقة الجبال[36]، بينما تصل كبارها إلى نقطة التقاء الهندوس وأكيسين. بهذا المقدار قصص حيوانات الهند. والآن إذ أعود إلى ميغاسفين، فإني سأواصل رواية القصة من حيث توقفت.

46- يقول ميغاسفين، بعد الصيادين والرعاة تأتي الكاستا الرابعة، كاستا الحرفيين والتجار وكلّ الذين يمارسون عملاً فيزيائياً. وبعض هؤلاء يؤدّي الإتاوة وأعمال السخرة المفروضة عليهم؛ أمّا صانعو الأسلحة وبنّاؤو السفن، فإنهم يتلقون من الملك الأجر المقرر والمؤونة، لأنهم يعملون عنده فقط. والقائد العسكري هو الذي يسلّح الجنود، أمّا السفن، فقائد الأسطول هو الذي يؤجّرها للبحارة والتجار.

47- وتتألّف الكاستا الخامسة من كاستا الجنود الذي يقضون وقتهم كلّه إذا كانوا في الحرب، باللهو والسُّكْر على نفقة الخزنة الملكية. ولذلك فهم مستعدون في أي لحظة للانطلاق في الحملة المقرّرة، ولا يحملون معهم عندئذٍ أي شيء.

48- ويشكّل المراقبون الكاستا السادسة. ويعهد إلى هؤلاء بمراقبة كلّ ما يحصل؛ وواجبهم أن ينقلوا إلى الملك ما يعرفونه عن كلّ شيء. وتساعدهم العاهرات في عملهم هذا، فالمراقبون المدينيون تعاونهم عاهرات المدينة، ومراقبو المعسكرات تعاونهم عاهرات المعسكرات. ولا يشغل هذه الوظيفة إلاّ أفضل الناس وأكثرهم إخلاصاً.

49- وتتألّف الكاستا السابعة من مستشاري الملك ومعاونيه الذين يشغلون أعلى

المناصب: التشريع، وإدارة شؤون البلاد كلها. ولا يسمح لهؤلاء أن يتزوّجوا فتيات من كاستا أخرى، ولا أن يغيّروا عملهم إلى عمل آخر، كما لا يسمح لهم أن يجمعوا بين عدد من الوظائف، إلاّ إذا كانوا من الفلاسفة؛ فهؤلاء الأخيرون بحسب ميغاسفين، كانوا معفيين من هذه المحظورات كلّها بسبب كفاءاتهم وأهليتهم العالية.

50- ومن الشخصيات التي تشغل المناصب: مراقبو السوق، والساهرون على استتباب الأمن في المدينة[37]، وقادة القوّات المسلّحة. فيُجري مراقبو السوق مسحاً جديداً للأراضي[38]، وينظمون مجاري الأنهار، كما في مصر، ويراقبون القنوات المغلقة التي يجري منها توزيع المياه على الأنابيب لكي توزّع بالتساوي على الناس. ويخضع الصيادون لهؤلاء الموظفين الذين يحق لهم أن يكافؤوهم على حسن عملهم، أو يعاقبوهم على تقصيرهم وإهمالهم. كما يجبي هؤلاء الموظفون أنفسهم الضرائب، ويراقبون كلّ الحرفيين الذين لعملهم الحرفي صلة بالأرض كالنجارين، وقطّاعي الشجر، والحدادين، والمعدّنين. وهم الذين يشقون الطرقات ويضعون بعد كلّ 10 مراحل عموداً يحمل إشارات المنعطفات والمسافات.

51- وينقسم المشرفون على الأمن وحسن سير النظام في المدينة إلى 6 مجموعات في كلّ مجموعة 5 أفراد. ويشرف أفراد المجموعة الأولى على النشاط الحرفي وعمل الحرفيين. ويدير آخرون شؤون استقبال الأجانب: يؤمّنون لهم الإقامة في الفنادق، ويراقبون سلوكهم عبر مرافقين ملحقين بهم؛ فهؤلاء يرافقون الغرباء أنفسهم، وفي حال وفاة أيّ منهم يهتمّون بإرسال أملاكه وما يخصه إلى بلاده[39]، كما يعتنون بالمرضى منهم ويدفنون من يتوفى. ويتقصّى فريق ثالث منهم حالات الولادة والوفاة: كيف حدثت، وما هي ظروف حدوثها؛ والغرض من ذلك هو فرض الضرائب، وعدم بقاء الولادات والوفيات مجهولة، سواء ولادات ووفيات الأخيار أو الحثالات. ويهتمّ فريق رابع بشؤون تجارة المفرّق والتبادل السلعي. فيراقب هؤلاء المعايير والمكاييل، وغلال الموسم لكي تباع هذه الأخيرة بمعايير موسومة. فلا يستطيع الشخص نفسه أن يبيع أكثر من مادّة إلاّ إذا أدّى ضريبة مزدوجة. ويعيّن فريق خامس لمراقبة المصنوعات الحرفية، لكي تباع هذه موسومة ومستقلّة عن القديمة. وتفرض غرامة معينة على من يخلط المصنوعات الحديثة مع القديمة. ويجمع الفريق السادس والأخير العشر المفروض على السلع المبيعة. وعقوبة التهرّب الضريبي عندهم الموت. ويعهد بهذه الالتزامات إلى كلّ مجموعة من مجموعات المشرفين على الأمن وحسن سير النظام في المدينة على

حـدة، وتشـرف المجموعـات كلّهـا معـاً علـى الشـؤون الخاصـة وشـؤون الدولـة، وتعـتني بإصـلاح المبـاني العامّـة، وضبط أسـعار بيـع السـلع وشـرائها، وتنظـيم شـؤون الأسـواق، والموانئ، والمعابد.

52- وبعد المشرفين على الأمن وحسن سير النظام في المدينـة، تـأتي الفئـة الثالثـة من الموظفين المتحدين الذين يديرون الشؤون العسـكرية؛ وتنقسم هذه الفئـة بـدورها إلى 6 مجموعات في كلّ مجموعة 5 أفراد. ويلحق أفـراد المجموعـة الأولى بالنافـارخ[40]. أمّـا الآخـرون فيلحقـون بقائـد مركبـات الـثيران الـتي تنقـل العتـاد الحربـي، والمـؤن للنـاس ولمواشي النقل، وباقي ضـروريات القـوّات. وهـؤلاء أيضـاً هـم المسـؤولون عـن نقـل كـادر الخدمـة: الطبـالين، وحـاملي الأجـراس، وسائســي الخيـل، ومعلّمـيّ الآلات القتاليـة ومسـاعديهم؛ وهـم الـذين يرسـلون تحـت أصـوات قـرع الأجـراس معـديّ علـف المواشـي، محقّقين بذلك أمان إيصال المكافآت والعقوبات بالسرعة المطلوبة. ويعمل تحـت إشـراف المجموعة الثالثة رجال سلاح المشاة؛ وتشـرف المجموعـة الرابعـة علـى إدارة شـؤون الخيـل؛ وتشرف الخامسـة علـى المركبـات، والسادسـة علـى الفيلـة. وتعـدّ مـرابط الخيـل والفيلـة ملكـاً للملـك؛ والترسـانة أيضـاً[41]، لأنّ علـى كـلّ جنـدي أن يعيـد إلى الترسـانة عدتـه، وإلى الإسـطبل جـواده، والأمـر عينـه ينسـحب علـى الفيلـة. وهـذه الأخـيرة لا تُلجـم. وفي الحمـلات تنقـل الحمـولات علـى الـثيران. وتُقـاد الخيـل بالرسـن كـي لا تتـأذى قوائمهـا فتفقد رشاقتها عندما تقـرن إلى المركبـات القتاليـة. وعـادة مـا يكـون في كـلّ مركبـة مقاتلان ما عدا الحوذي، أمّا الفيل فيحمل ثلاثة من رماة السهام إضافة إلى الحوذي.

53- ويتميّـز الهنـود كلّهـم ببسـاطة نمـط عيشـهم خاصـة في أوقـات الحمـلات العسـكرية؛ وهـم لا يستحسـنون أيّ صـخب أو فوضـى، لـذلك يحـافظون دائمـاً علـى الانضباط. ولكنّهم يلتزمون أكثر مـا يلتزمـون التعفّـف عـن اللصوصية. وبحسـب روايـة ميغاسفين، أنه خلال الوقت الـذي مكثـه في معسـكر سـاندروكوتّ حيـث كـان فيـه 400 ألف مقاتل، لم ير إعلاناً واحداً عن أشياء مسروقة ثمنهـا أكثـر مـن 200 دراخمـا؛ وهذا الواقع لدى أناس ليس لهم قـوانين مكتوبـة! وواقـع الحـال علـى حـدّ قولـه، هـو أنّ الهنـود لا يعرفـون القـراءة والكتابـة، لكـنّهم يعـالجون أمـورهم كلّهـا اعتمـاداً علـى الذاكرة. ومع ذلك يعيش الهنود سعداء بفضل بسـاطتهم وحرصـهم، فهـم بحسـب قـول هـذا الكاتـب، فعـلاً لا يشـربون النبيـذ إلاّ أثنـاء تقـديم الـذبائح، وحتـى نبيـذهم هـذا مصنوع من الرزّ وليس من الشعير. وأكثر قـوتهم مـن حسـاء الـرزّ. وتتجلّـى بسـاطتهم في

قوانينهم واتفاقياتهم العملية التي تبيّن أنهم لا يميلون إلى الدعاوى والمقاضاة. فليس في هذه البلاد دعاوى قضائية تعالج مسائل الرهن والائتمان على أشياء ثمينة؛ فهم لا يحتاجون شهوداً وأختاماً، لكنّ كلّهم يثق بمن يأتمن على أشيائه الثمينة. وحتى الموجودات المنزلية لا رقابة عليها عادة. ومن البدهي أن هذا كلّه منظّم بشكل عقلاني منطقي. ولكن لعلّ أحداً لا يستحسن تقليدهم الآخر الذي يقضي بأن يعيش المرء لنفسه فقط من غير ساعة غداء أو عشاء يقضيها مع الآخر، أو يستشيره في أمر ما؛ فطريقة الطعام الأخرى أكثر ملاءمة للحياة الاجتماعية والمدنية.

54- ومن أنواع العناية بالجسد يفضّل الهنود أكثر ما يفضّلون تدليك الجسد بمختلف الطرائق، وهم في غضون ذلك يدلكون أجسادهم بعصاة تدليك مصنوعة من خشب الأبنوس. ومراسم الدفن عندهم متواضعة، وتبّات القبور ليست مرتفعة. ولكنّهم على الضدّ من بساطة عيشهم في كلّ شيء، إلاّ أنهم يحبون التزيّن. فهم يرتدون أردية موشاة بالذهب، ويتزيّنون بحليّ مصنوعة من الحجارة الكريمة، ويرتدون ثياباً مزركشة مصنوعة من الكتان الناعم، وعندهم مرافقون يحملون لهم المظلاّت التي يتّقون بها أشعة الشمس. وبما أنهم يقدّرون الجمال تقديراً عالياً، لذلك يفعلون كلّ ما من شأنه أن يجمل الوجه. بيد أنهم يجلّون الحقيقة والبسالة. ولذلك لا يقيمون وزناً لكبار السن إن لم يكن هؤلاء يتفوّقون في الحكمة. وهم يقتنون كثيراً من الفتيات زوجات لهم يشتروهنّ من والديهنّ؛ ويحصل هذان عن كلّ ابنة على زوج من الثيران. وتستخدم بعض هؤلاء الزوجات للخدمة، وأخريات للمتعة وإنجاب أكبر عدد من الأبناء. وإذا لم يرغموهنّ على حياة العفّة، فإنهنّ يمكن أن يتحوّلن إلى حياة التهتك والدعارة. ولا يقدّم أيّ هندي ذبيحة، أو يحرق بخوراً، أو يسكب زيتاً وعلى رأسه إكليل. أمّا حيوان الذبيحة فلا ينحر، بل يخنق خنقاً كي يبقى تاماً من غير أذى. ومن تثبت عليه تهمة تأدية شهادة الزور، تبتر يداه ورجلاه، أمّا من يشوّه أحداً ما، فينزل به التشوّه نفسه، وتقطع يده أضافة إلى ذلك. وإذا ما سلب أحدهم حرفياً يديه أو عينيه، فعقابه الموت. وبحسب ميغاسفين، إنه ليس لدى أيّ هندي عبيد؛ ولكنّ أونيسيكريتيس يعلن العكس، فالعبودية كما يؤكّد، سمة من سمات الهنود في بلاد موسيكان، ويرى فيها إنجازاً إيجابياً، كالإنجازات الأخرى الكثيرة التي حققتها هذه البلاد التي تمتلك أفضل قوانين.

55- وأُلقيت مهمّة العناية بشخص الملك على عاتق النسوة المشريّات بدورهنّ من

والـديهنّ. وكـان حـراس شـخص الملـك وبـاقي القـوات يقيمـون خـارج البوابـات. وكانـت المرأة التي تقتل الملك الثّمل تكافأ بالزواج من خليفته، ويرث أولادهما السلطة الملكية. ولم يكـن الملك ينام في النهار، كمـا كـان يبـدّل مكـان نومـه في الليـل مـن وقـت لآخـر خوفاً من النوايا الشريرة. ومن حالات ظهور الملك الاحتفالية غير العسـكرية، ظهـوره في المحكمة حيث يصرف يومـه كـاملاً يستمع إلى الـدعاوى، وظهـوره حينمـا يحـلّ موعـد العناية بشخصه. والعناية بشـخص الملـك تعـني تـدليك جسـمه بعصـي التـدليك، لأنّ الملك يسـتمع في الوقـت نفسـه إلى القضـايا المعروضـة أمامـه، ويـدلّك جسـده بمسـاعدة أربعـة مـدلّكين آخـرين يتوزّعـون حولـه. والظهـور الاحتفـالي الثـاني للملـك هـو خروجـه لتقـديم الـذبائح. أمّـا ظهـوره الاحتفـالي الثالـث فهـو خروجـه إلى الصـيد الـذي يتخـذ الطـابع الباخوسـي إلى حـدّ مـا؛ ففـي غضـون ذلـك يظهـر الملـك محاطـاً بالنسـاء، ويسـير حـاملو الرمـاح خـارج دائـرة النسـوة. وتحـاط طريـق الموكـب بالحبـال مـن جانبيهـا. ومـن يتجـاوز الحبل إلى النساء يتهدده خطـر المـوت. ويسـير أمـام الموكـب الطبّـالون وحـاملو الأجـراس ويصيد الملك عادة في مكـان مسيّج، فيرمي سـهامه مـن مكـان مرتفـع (تقـف إلى جانبـه امرأتان أو ثلاث بالسلاح الكامـل)، أمّـا في الأمـاكن غـير المسـيّجة، فيصـيد الملك مـن فوق ظهر فيل. وتتبعه النسوة بعضهنّ في المركبات، وبعضهنّ الآخر علـى ظهـور الخيـل، وبعضهنّ الثالث على متون الفيلة مسلّحات بشتّى أنواع الأسلحة، كمـا لـو كـنّ يرافقنـه في حملة عسـكرية.

56- ومن الواضح أن هذه العادات تعدّ عادات غريبـة مقارنـة بعاداتنـا، لكـن مـا يـثير الاسـتغراب مـن العـادات حقّـاً هـي العـادات التاليـة. فميغاسـفين يـروي أنّ سـكّان القفقاس يعاشرون النساء علانية ويلتهمون أجساد أقاربهم. وتعيش هنـاك قـردة لهـا ذيـول تقذف الحجارة؛ فهي تعتلي الجـروف وترمـي الحجـارة مـن هنـاك علـى الـذين يطاردونهـا. وأكثـر حيواناتنـا المنزليـة لا تـزال عنـدهم بريّـة. ويتحـدّث ميغاسـفين عـن أفـراس وحيـدة القرن لها رؤوس أيائل وقصب يقف عمودياً يصل طول واحدته إلى 30 أورغيا، ونـوع آخـر منه يفترش الأرض ويصل طول واحدتـه إلى 50 أورغيـا، وهـي ثخينـة يصـل قطرهـا إلى 3 أذرع، وبعضها أكبر بمرّتين.

57- وبعـد أن يعبر ميغاسـفين إلى منطقـة الخيـال الصـرف، يتحـدّث عـن أنـاس يـتراوح طـول الواحـد مـنهم بـين 5 وثـلاث أشـبار، وبـين هـؤلاء مـن لا أنـف لـه، لكـن لـه فتحتان تنفسيتان فوق الفم. وبحسب قوله إنّ الغرانيق والحجال تحارب قبيلة الذين طـول

واحدهم 3 أشبار، إذ يبلغ حجم هذه الطيور هنا حجم الأوزّ (عن هذه الحرب يتحدّث هوميروس أيضاً)[42]. فهذه القبيلة تجمع بيوض الغرانيق التي تضعها هناك وتتلفها؛ ولذلك لا وجود لبيض الغرانيق، بالتالي لفراخها في أيّ مكان آخر. وليس نادراً أن يتفادى الغرنوق ضربة سهم حربة برونزية يطلقه أحد أفراد هذه القبيلة على جسده. كما يروون قصصاً مشابهة عن أناس «يفترشون آذانهم ويناموون عليها»، وقصصاً أخرى عن متوحّشين همج، ونوادر غريبة أخرى. فبحسب هذا الكاتب إنّهم لم يستطيعوا أن يأتوا إلى ساندروكوتّ بمتوحّشين، لأن هؤلاء كانوا يميتون أنفسهم جوعاً. وكعب القدم لدى هؤلاء إلى الأمام، وباطن القدم والأصابع إلى الخلف. ومع ذلك نجحوا في أن يأتوا إليه ببعض الأفراد الذين لا أفواه لهم؛ وقد كان هؤلاء أناساً ودعاء يقطنون عند منابع الغانج. ولا يقتاتون إلاّ على رائحة اللحم المشوي، وروائح الثمار والزهور، لأنّ لهم بدل الأفواه فتحات تنفسية فقط: تضنيهم الروائح الكريهة، لذلك يعانون من العيش في المعسكرات الحربية على وجه الخصوص. أمّا بخصوص باقي مثل هؤلاء الناس العجيبين، فإنّ ميغاسفين يقول، إنّ الفلاسفة حدّثوه عنهم؛ فقد وصفوا الأوكيبوديين[43]، الذين يعدون أسرع من الخيل؛ والإينوتوكيتيين[44] الذين تتدلّى آذانهم حتّى أرجلهم بحيث يفترشونها ويناموون عليها، ويمتلك هؤلاء قوّة عضلية تمكّنهم من اقتلاع الشجر من جذوره، وانتزاع الوتر من القوس؛ وتذكر بعد ذلك قبيلة أخرى أفرادها بعين واحدة في وسط الجبين، ولهم آذان كلاب؛ وشعر هؤلاء الناس أشعث منتصب، وصدورهم مكسوّة بوبر كثّ؛ ثمّ وصفوا الأميكتوريين[45] آكلي كلّ شيء طرياً من غير أيّ معالجة، والذين لا يعيشون طويلاً، إذ يُتوفّى واحدهم قبل أن يبلغ سنّ الشيخوخة؛ وتتدلّى الشفة العليا لهؤلاء أبعد كثيراً من الشفة السفلى. ويروي ميغاسفين عن الهيبربورياس الذين يعيشون ألف عام الشيء نفسه الذي يرويه سيمونيدس، وبيندراوس ورواة الأساطير الآخرون. كما تعدّ رواية تيماجين عن تساقط النحاس هناك مطراً نحاسياً من السماء جرفته [الأنهار]، أسطورة بدورها؛ لكنّ قصة ميغاسفين عن الأنهار التي تحمل معها الرمال الذهبية إلى الأسفل هي أقرب إلى الحقيقة؛ فقسم من الرمل المستخرج يؤدّى إتاوة للملك. والظاهرة عينها يمكن أن نراها في إيبيريا أيضاً.

58- ويقول ميغاسفين في سياق حديثه عن الفلاسفة، إنّ منهم من يمجّد ديونيسيوس، وهم سكّان الجبال؛ فهؤلاء الفلاسفة يسوقون وجود عرائش العنب البري

التي لا تنمو إلاّ في بلادهم برهاناً [على مكوث الإله عندهم]، ومثلها وجود اللبلاب، والغار، والزّان وسواها من النباتات الدائمة الخضرة؛ فلا وجود لأيّ من هذه النباتات على الجانب الآخر من الفرات، إلاّ في الحدائق حيث تلقى عناية فائقة. ومن التقاليد الديونيسية أيضاً، ارتداء الفلاسفة ثياباً كتّانية، وبراطل، وتطيبهم بالعطور، وتزينهم بألوان متنوّعة، ومرافقتهم للملك لدى خروجه الاحتفالي تحت أصوات قرع الأجراس ودقّ الطبول؛ أمّا الفلاسفة الذين يقطنون المناطق السهلية، فهم يمجّدون هرقل. وغنيّ عن البيان القول، إنّ روايات ميغاسفين هذه تحمل طابعاً أسطورياً ويرفضها كثير من الكتّاب خاصة روايته عن دالية العنب والنبيذ؛ فالشطر الأكبر من أرمينيا، ووادي الرافدين كلّه، وشطر ميديا الذي يليه مباشرة، حتّى بيرسيدا وكارمانيا، هذه كلّها تقع على ذلك الجانب من الفرات؛ وفي مساحات واسعة من كلّ منطقة من مناطق هذه الشعوب تنمو عرائش عنب جيّدة، ويصنع منها نبيذ فاخر.

59- وعلى أيّ حال فإن ميغاسفين في معالجته لموضوع الفلاسفة، يقدّم تقسيماً آخر، فيؤكّد على وجه التحديد، أن هناك عشيرتين منهم . فيدعو إحداهما براهمن، والأخرى هارمان[46]. ويحظى البراهمن بقدر أكبر من الاحترام والتبجيل، لأنّ في تعاليمهم قدراً أكبر من الوفاق. فمنذ أن يكون الجنين في رحم أمّه يخضع، كما يقولون، لوصاية العلماء الذين يترددون إلى الأمّ والطفل قبل أن يولد ويرقونهما بزعم أنهم يهيئون لمخاض موفّق؛ أمّا واقع الأمر فإنهم يقدّمون نصائح وتعليمات حكيمة. ويزعمون أنّ النساء اللواتي يستمعن لهم برضا ورحابة صدر أكثر، سوف يكنّ الأكثر سعادة بذريتهنّ، وبعد أن يولد الطفل يأخذ مختلف الأشخاص واحدهم تلو الآخر على عاتقه مهمّة تربيته، وفي غضون ذلك ينال الطفل مع تقدّم نموّه، معلّمين أغنى معرفة وثقافة. ويقيم الفلاسفة في حديقة أمام المدينة داخل سياج متواضع بسيط، وهم يعيشون حياة بسيطة، فينامون على مراقد من القش، وجلود الوحوش؛ ولا يستهلكون لحوم الحيوانات في غذائهم، كما يعزفون عن معاشرة النساء، ولا يستمعون إلاّ إلى الأحاديث التي تتناول مسائل جدّية، ولا يتواصلون إلاّ مع الذين يرغبون الاستماع إلى تعاليمهم. ولا يسمح للمستمع أن يتحدّث، أو يسعل، أو يتفل؛ وإذا ما أجاز لنفسه أيّ سلوك من هذا القبيل، يطرد من المجلس طول اليوم بصفته شخصاً مستهتراً. وبعد أن يقضي واحدهم 37 عاماً على هذا النحو، يعود إلى دياره ويعيش حياة أكثر هدوءاً وتحرّراً، فيرتدي ملابس كتّانية، ويتزيّن بحليّ ذهبية متواضعة يضعها في أذنيه

وعلى يديه، ويستهلك في طعامه لحوم الحيوانات التي تساعد الإنسان في عمله، ويمتنع عن استخدام الحرّ والتوابل في غذائه. ويتزوّج هؤلاء أكبر عدد ممكن من النساء لكي ينجبوا أكبر عدد ممكن من الأبناء، فمن كثير من النساء يمكن أن ينجب المرء عدداً أكبر من الأبناء الذين يستحقّون الإعجاب. وبسبب عدم وجود العبيد يجدون أنفسهم مضطرين للاعتماد على أبنائهم في ضمان أفضل الخدمات التي يقدّمها أقرب الناس. ولا يكرّس البراهمن زوجاتهم الشرعيات في الفلسفة خشية أن تفشي الزوجات الحمقاوات منهن أسراراً ما لغير المكرّسين فيها، ولم يكن البراهمن يتخلّون عن الزوجات الصالحات مدى الحياة. والحقيقة إن الزاهد بالمتع واللامبالي بالآلام، ومثلهما بالحياة والموت، لا يرغب البتّة في أن يكون تحت سلطة أيّ شخص آخر. وعلى هذا النحو يجب أن يكون الرجل الصالح والمرأة الصالحة. وأكثر ما يتحدّث الفلاسفة عنه هو الموت. فهم يرون في هذه الحياة مجرّد طفل في رحم أمّه، أمّا الموت فهو ولادة جديدة نحو الحياة الحقيقية والنعيم بالنسبة للفلاسفة. ولذلك فإنهم يألفون أكثر ما يألفون فكرة الاستعداد الدائم للموت. وبحسب معتقدهم إنّ أيّ شيء يحصل للإنسان هو بحدّ ذاته ليس جيّداً، وليس سيّئاً، وإلاّ لما كان الحدث نفسه يجعل بعضهم يحزن، وبعض الآخر يفرح، فكأن هؤلاء وأولئك يعيشون حلماً؛ ولما كان هؤلاء أنفسهم في الأحوال عينها يحزنون تارة، ثمّ يتبدّل مزاجهم فيفرحون من جديد. وفيما يخصّ تعاليم البراهمن عن الطبيعة، فإنّ ميغاسفين يقول، إن بعض أفكارهم تظهر سذاجة في التفكير. وهم على وجه العموم أقوياء في العمل أكثر من الكلام، لأنّ أكثرهم يجهد لإثبات صحّة قناعاته عبر الأساطير. ولهم في الكثير رأي واحد مع الإغريق. فهم يظنّون مثلاً، أن الكون مخلوق[47] ومحكوم بالهلاك، تماماً كما يزعم الإغريق؛ ويرون أن الكون كروي الشكل، وإنّ الإله[48] الذي خلق هذا الكون ويدير شؤونه ينتشر في شتّى أرجائه. وقد رأوا أنّ العناصر الأولى للأشياء كلّها، مختلفة، وإنّ الماء هو العنصر الأول في تشكّل العالم. وعلاوة على العناصر الأربعة، هناك عنصر خامس، هو العنصر الطبيعي الذي تتشكل منه السماء والنجوم. ورأوا أن الأرض تقع في مركز الكون. ويذكرون أيضاً مثل هذه الرؤى للبراهمن عن البذرة، والروح وبعض الموضوعات الأخرى. وفي غضون ذلك يشبك البراهمن في قصصهم الأساطير التي تتحدّث عن خلود الروح، ومحكمة هاديس، وما شابه ذلك، وهذا كان يفعله أفلاطون أيضاً. إنّ هذا هو ما رواه ميغاسفين عن البراهمن.

60- ويقـول عـن الهارمـان، إن الأكـثر وقـاراً وهيبـة منهم يدعون هيلوبيين[49]، لأنهم يعيشون في الغابات، ويقتاتون على ورق الشجر والثمار البرية، ويرتدون الألياف اللبّية، ويمتنعون عن معاشرة النساء وشرب النبيذ. ويتواصل هؤلاء مع الملوك بوساطة مبعوثين يسألونهم عن أسباب الأحداث؛ وبوساطة الهيلوبيين يعبد الملوك الإله ويرفعون له الصلوات. ويشغل الأطباء مكانة الشرف الثانية بعد الهيلوبيين؛ فيعدّ الأطباء بمثابة الفلاسفة الذين يدرسون المسائل البشرية؛ ويعيش هؤلاء عيشة بسيطة، لكنّهم لا يقيمون في العراء؛ يقتاتون بالرزّ، وطحين الشعير الذي يقدّمه لهم أيّ كان بناء على طلبهم، أو كلّ من يستضيفهم. وعن طريق السحر يمكنهم أن يجعلوا النساء يلدن كثيراً من الأبناء، أولاداً أو بناتاً بحسب رغبة الوالدين. ويداوي هؤلاء الأمراض معتمدين بشكل رئيس على الحمية الغذائية، وليس على الأدوية. ويقدّرون من الأدوية أكثر ما يقدّرون المراهم واللصاقات، لكنّ وسائل المداواة الأخرى التي يستخدمونها تحتوي على كثير مما هو مؤذي. ويتمرّن هؤلاء الهارمان وأؤلئك على الإصرار والمثابرة ليعتادوا على تحمّل المعاناة والألم، كما يتمرّنون على الجلد والصبر، فواحدهم يستطيع أن يقضي نهاراً كاملاً ساكناً في وضعية واحدة لا يتحرّك. وهناك المتنبّئون والرقاة الذين يعرفون الخرافات والأساطير والعادات المرتبطة بالأموات؛ فيجوبون القرى والمدن يطلبون العطاءات. وهناك آخرون أيضاً، والحقيقة إنّ هؤلاء أكثر علماً وثقافة وتأنّقاً من أولئك، لكنّهم مع ذلك لا يتعففون عن استخدام القصص المعتادة عن هاديس، لأنهم يرون إنّ هذه القصص تساعد على النقاء والطهارة. وعند بعضهم تمارس النساء الفلسفة إضافة إلى الرجال، وهؤلاء أيضاً يمنعن عن معاشرة الرجال.

61- ويروي أريستوبول أنه رأى في تاكسيلا صوفييْن كلاهما من البراهمن. وكان أكبرهما حليق الرأس، بينما حمل الآخر شعراً طويلاً؛ وكان يرافق كلاًّ منهما تلاميذه. وكان هذان يصرفان ما يتبقى لديهما من الوقت بعد الأشغال الأخرى، يتجوّلان في السوق؛ وبما أن الناس كانوا يرون فيهما مستشاريْن مبجّليْن، فقد كان هذان يحصلان مجاناً على أيّ سلعة يريدان. وإذا ما جاءا أيّ شخص فإنه يدهنهما بزيت السمسم حتّى يسيل على أعينهما. وبما أنه كان يعرض للبيع هناك كثير من العسل والسمسم، فقد كانا يصنعان منه مجاناً أرغفة ويأكلانها. وجاء هذان مرّة إلى مائدة الإسكندر فتناولا طعامهما وقوفاً، وعلّما الملك الصبر وتحمّل المشاق. فانتحى الأكبر

منهما مكاناً على مقربة، واستلقى على ظهره يتحمّل لهيب الشمس وهطل الأمطار (لقد كان المطر يهطل لأنّ الوقت كان أوّل فصل الربيع)، بينما وقف الأكبر على قدم واحدة رافعاً بيديه إلى أعلى ما يستطيع صارياً طوله 3 أذرع؛ وعندما كانت قدمه تتعب كان يحوّل المسند إلى القدم الثانية، وهكذا دواليك طول نهار كامل. وقد ظهر أن الأصغر منهما كان أكثر قدرة على الصبر والتحّمل من الأكبر؛ وبعد أن سار مع الملك مسافة قصيرة، قفل عائداً إلى بيته على عجل، وأوعز إلى رسول الإسكندر إليه أن يقول للملك، إنه إذا أراد منه شيئاً فيمكنه أن يأتي إليه بنفسه. أمّا الأكبر فقد رافق الملك حتّى النهاية، وأقام معه، وغيّر ملابسه ونمط عيشه. ورداً على لوم بعضهم أجاب إنه أمضى 40 عاماً زاهداً ناسكاً ووفّى نذره. فكافأ الإسكندر أولاده.

62- ويذكر أريستوبول بعض العادات الغريبة التي لا مثيل لها، والشائعة في تاكسيلا. فالذين يحول الفقر بينهم وبين تزويج بناتهم على سبيل المثال، يقودونهن إلى السوق وهنّ في زهرة عمرهن؛ ثمّ يدعون الناس بأبواق مصنوعة من القواقع، وبقرع طبول الحرب (وهو نداء الدعوة إلى القتال)؛ ثمّ يكشفون عن جسد الفتاة من الخلف أوّلاً، وبعد ذلك من الأمام، أمام كلّ من يقترب؛ وإذا ما نالت الفتاة إعجاب أحدهم ووافقت هي على الشروط المعروضة، يأخذها زوجة له. وترمى الجثث عندهم لتلتهمها الحدآت. وعادة اقتناء عدد من الزوجات عادة شائعة عندهم كما هي الحال لدى القبائل الأخرى. وسمع أيضاً أن الزوجات لدى بعض القبائل يُحرقن برضاهن مع أزواجهن المتوفين، واللواتي لا يجرؤن على فعل ذلك يلاحقهن العار مدى الحياة. ويتحدّث عن هذه العادة كتّاب آخرون أيضاً.

63- ويروي أونيسيكريتيس إنه أُرسل شخصياً ليتحدّث مع هؤلاء الصوفيين. فقد وصلت إلى مسامع الإسكندر أقاويل تزعم أن هؤلاء الناس يتجوّلون عراة، ويتمرّنون على الجلد والصبر ويحظون بتبجيل عظيم؛ وهم لا يلبّون دعوات الآخرين لهم كي يزوروهم، بل يطلبون أن يأتي هؤلاء إليهم إذا كانوا يرغبون برؤيتهم وسماع أقوالهم ورؤية أفعالهم. وبما أنه لم يكن يليق بالملك أن يمضي بنفسه إليهم، أو يرغمهم على أيّ فعل يخالف التقاليد الموروثة، تقرر أن يمضي أونيسيكريتيس إليهم. وعلى بعد 20 مرحلة عن المدينة قابل أونيسيكريتيس 15 رجلاً منهم؛ وكان هؤلاء عراة يتخذون وضعيات مختلفة تجمع بينها حالة السكون: بعضهم كان واقفاً، وآخرون جالسين، أو مستلقين حتّى المساء، ثمّ يعودون بعد ذلك إلى المدينة. وكان الأمر الأصعب، هو تحمّل

قيظ الشمس الذي كان شديداً إلى درجة أنه كان من المتعذر على أيّ كان غير هؤلاء أن يخطو على الأرض حافياً.

64- لقد تحدّث أونيسيكريتيس إلى أحد هؤلاء الصوفيين، وكان يدعى كالان، وقد رافق هذا الإسكندر إلى بيرسيدا ومات هناك وفق التقليد الموروث: صعد ناراً. وكان أونيسيكريتيس قد وجد كالان مستلقياً على حجارة. فدنا منه محيياً وقال، إنه مرسل من الملك ليتعلم حكمة الصوفيين وينقلها إليه. وأضاف، إنه مستعدّ لسماع تعاليمه إذا لم يكن لديه مانع. وإذ رأى كالان إن أونيسيكريتيس يرتدي معطفاً، وقبعة من اللبّاد، وجزمة، ابتسم وقال: «في الزمن القديم كان دقيق الشعير والقمح يملأ كلّ شيء، كالغبار الآن. وكان بعض الينابيع يجري ماء، وبعضها الآخر لبناً وعسلاً، وبعضها الثالث نبيذاً، والرابع حلاوة. فجعلت التخمة والبذخ الناس متغطرسين. ولمّا لم يعد زيوس يطيق تلك الحال، دمّر ذلك كلّه وحكم على الإنسان أن يعيش من عمله. ولمّا ظهر الاعتدال ثانية على الأرض، وظهرت معه الفضائل الأخرى، عادت وفرة الخيرات من جديد. وها هي شؤون الناس تقترب ثانية من التخمة والتعالي، وثمّة خطر إبادة كلّ شيء». ويروي أونيسيكريتيس، أن الصوفي طلب منه بعد هذه الكلمات، أن يخلع ثيابه ويستلقى عارياً على الحجارة نفسها ويستمع إلى تعاليمه إذا كان يريد ذلك. ولمّا ارتبك أونيسيكريتيس واحتار كيف يتصرّف، وجّه ماندانيوس[50]، وهو الأكبر بين الصوفيين والأكثر حكمة، لوماً إلى كالان لأنه في الوقت الذي يتهم فيه الناس بالعجرفة، يبدو هو نفسه متعجرفاً؛ ثمّ دعا ماندانيوس أونيسيكريتيس وقال له، إنه يوجّه المديح إلى الملك لأنه في الوقت الذي يدير فيه شؤون مثل هذه الدولة العظمى، يتعطش للحكمة؛ فهذا الملك، هو الشخص الوحيد الذي رآه يشتغل بالفلسفة حاملاً السلاح بيده. فأكثر الأشياء فائدة فعلاً، لو امتلك الحكمة أناس قادرون على جعل فريق من الناس أعفاء محتشمين برضاهم، وإرغام الآخرين على فعل ذلك عنوة. وتابع ماندانيوس قائلاً، إنه مدين بالاعتذار، إذا كان وهو يتحدّث عبر ثلاثة مترجمين (الذين ما عدا اللغة، لا تتجاوز معارفهم معارف الدهماء)، لم ينجح في أن ينقل إلى أونيسيكريتيس برهاناً يؤكّد فائدة تعاليمه. فهذا كمن يطلب أن يجري الماء الصافي عبر الوحل.

65- ويقول أونيسيكريتيس، إن حديث الصوفيّ يتلخص في إظهار أنّ أفضل التعاليم هي التعاليم التي تدرأ عن الروح السعادة والحزن. فالحزن والمعاناة مختلفان،

لأنّ الأوّل يؤذي الإنسان، بينما الثانية تنفعه. والناس يعوّدون أجسادهم على العمل لكي يرسّخوا قواهم الروحية ويجعلوها أكثر صلابة؛ ويمكنهم بهذا أن يضعوا حدّاً للعصيان، ويصبحوا مستعدّين لتقديم نصائح طبّية لأيّ كان؛ للدولة كما للأفراد كلّ على حدة. وهو فعلاً نصح تاكسيل أن يستقبل الإسكندر [إذ قال له]، إذا استقبل شخصاً أفضل منه، ينال الخير، وإذا استقبل شخصاً أسوأ منه فإنه يجعله أفضل. ويقول أونيسيكريتيس، إن ماندانيوس سأل بعد ذلك عمّا إذا كان لدى الإغريق مثل هذه التعاليم. فأجاب أونيسيكريتيس: لم يكن فيثاغورس وحده من علّم بهذه الروح ودعا إلى الامتناع عن أكل لحوم الحيوانات، بل هذا ما علّم به أيضاً سقراط وديوجينوس، وإنه هو نفسه كان تلميذاً لهذا الأخير. فاعترض ماندانيوس على هذا وقال، إنه على وجه العموم يرى أن الإغريق ذوو تفكير عقلاني، لكنّهم مخطئون في أمر، هو أنهم يضعون التقليد موضعاً أسمى من موضع الطبيعة؛ وإلاّ لما خجلوا من السير عراة كما يفعل هو، والعيش في ضنك. وأضاف ماندانيوس قائلاً، إن أفضل المنازل هو المنزل الذي أقلّ ما يحتاج إليه هو الموجودات المنزلية. ثمّ يواصل أونيسيكريتيس روايته فيقول، إن الصوفيين يشتغلون أيضاً في تقصّي الظاهرات الفيزيائية، ويدرسون الإمارات، وأسباب هطول الأمطار، وحدوث الجفاف، والأمراض. وأوّل ما يظهرون في المدينة يتوزّعون على الأسواق، وأوّل من يلقونه حاملاً تيناً أو عنباً، يأخذون هذا منه كتقدمة طوعية. وإذا كان هناك زيت زيتون فإنهم يدهنونهم به بغزارة، ثمّ يدلّكون هم أنفسهم أجسادهم به بعد ذلك. وكلّ بيت ثري أبوابه مفتوحة لهم، بما في ذلك قسم النساء. وإذ يدخل الصوفيون المنزل، يجلسون إلى المائدة، ويشاركون أهله الحديث. ويرون في العلّة الجسدية أعظم عار. وإذ يشتبه أحدهم بتسرّب مرض إلى جسده يحرق نفسه فوراً: يجمع الحطب ويأمر باشعال النار ليحرق ساكناً من غير حراك.

66- ويروي نيارخس عن الصوفيين ما يلي. يمارس فريق من البراهمن الأعمال الحكومية، فيرافقون الملك بصفتهم مستشارين. ويشتغل الفريق الآخر منهم في دراسة الظاهرات الفيزيائية؛ وإلى هؤلاء ينتمي كالان. وتشاركهم زوجاتهم العمل في الفلسفة. ويعيش هؤلاء كلهم نمط عيش صارم. ويقول عن عادات باقي الهنود ما يلي. القوانين عندهم غير مدوّنة، سواء القوانين العامّة أو الخاصّة، وهي تتميّز بفرادتها، مقارنة بقوانين الشعوب الأخرى. فعند بعض القبائل مثلاً، يمنحون الفتيات مكافأت لمن يفوز

في مباريات العراك بالأيدي، فتصبح هؤلاء زوجات من غير مهر. وعند آخرين لزاماً أن تحرث الحمولة كلّها الأرض معاً، وبعد جني المحصول ينال كلّ منهم حصة من الغلال تكفيه لعام كامل؛ ثمّ يحرق الباقي لكي يبقى كلّ منهم متأكّداً من أنه لا مفرّ له من العمل في المرّة القادمة فيبتعد عن تبذير وقته باللهو. ويتألّف تسليحهم من قوس وسهام طول الواحد منها 3 أذرع، وترس وسيف عريض طوله 3 أذرع . ويستخدمون بدلاً من اللجام حلقة في الأنف، ولا تختلف هذه كثيراً عن الكمّامة، ويغرسون في شفاه الخيل مسامير.

67- ويقول نيارخس في معرض برهانه على إنّ الهنود حرفيون مهرة، إن هؤلاء رأوا الليف لدى المقدونيين فصنعوا مثله؛ لقد شبكوا الصوف مع الشعر في خيوط وأشرطة دقيقة، ثمّ صنعوا من هذا لبّاداً وسحبوا الخيوط، أمّا الصوف فقد صبغوه. وعلاوة على ذلك، سرعان ما ظهر كثير من صانعي مقاشط الحمّام، وآنية الزيت. ويكتب هؤلاء رسائلهم على قطع قماشية رقيقة منسوجة بإحكام، مع أن الكتّاب الآخرين يزعمون إنّ الهنود لا يعرفون الرموز الكتابية. ويستخدمون النحاس مصبوباً وليس مطروقاً. بيد أنه لم يوضح أسباب هذا، مع أنه أشار إلى الإرباك الذي ينتج عن ذلك، فالآنية المصنوعة من مثل هذا النحاس تتكسر عندما تسقط، مثلها مثل الآنية الطينية. ومن أخبار الهند أيضاً، أنهم يخاطبون الملوك، وأصحاب النفوذ، والوجهاء وهم في وضعية الصلاة بدلاً من الركوع. وفي هذه البلاد حجارة كريمة ذات ياقوتات متنوّعة كالجمانه تماماً.

68- وهأنذا أسوق قصّة كالان كمثال على تضارب ما نقله الكتّاب عن الهند. فالكتّاب كلّهم متفقون على أنّ كالان رافق الإسكندر، وبحضوره أنهى حياته حرقاً بكامل إرادته. بيد أنه فيما يتعلّق بطريقة الحرق نفسها ودوافعها، فإن الكتّاب يوردون روايات مختلفة. فهم يروون أن كالان تبع الملك بصفته من مدّاحي مآثره خارج حدود الهند، على الضدّ من التقليد العام السائد لدى الفلاسفة المحلّيين. فالفلاسفة الهنود يتواصلون مع الملوك ليرشدوهم إلى عبادة الآلهة وتبجيلهم، مثلما يفعل كهنة الملوك الفرس. وفي باسارهاد اعتلّ كالان؛ ولأوّل مرّة هاجمه المرض، وكان في 73 من عمره، فتجاهل كلّ توسلات الملك ووضع حدّاً لحياته. لقد جمعوا كوماً من الحطب ووضعوا فوقه مرقداً ذهبياً. واستلقى كالان على المرقد، ولفّ في غطاء وأُحرق. لكنّ آخرين يروون، أنهم بنوا منزلاً خشبياً ملؤوه بأوراق النباتات؛ وجمعوا على سطح المنزل

كوماً من الحطب وأضرموا النار فيه. وبعد موكب احتفالي شارك فيه كالان نفسه، دخل هذا إلى المنزل وأمر أن يغلق عليه الباب. ثمّ رمى الفيلسوف بنفسه إلى النار وأحرق مع البيت كجذع من الحطب. وعلى حدّ قول ميغاسفين، إنّ تعاليم الفلاسفة لا تلزم أنصارهم بوضع حدّ لحياتهم، ومن يفعل ذلك يعدّونهم كالفتى الطائش. ويقول هذا الكاتب، إن أصحاب الإرادة الصلبة يهوون بأنفسهم فوق سيف، أو يرمون بأنفسهم إلى هاوية سحيقة؛ ومن يرغب في تفادي الآلام، يقذف نفسه في لجّة بحرية، أمّا الذين اعتادوا على المعاناة فيشنقون أنفسهم، لا يرمي بنفسه إلى النار سوى ذوي الطباع الحادّة. وهكذا كان كالان أيضاً، الرجل المتهوّر الذي صار إلى عبد على مائدة الإسكندر. ولذلك لاموه ومدحوا ماندانيوس. فقد دعا رسل الإسكندر ماندانيوس ليأتي إلى ابن زيوس، ووعدوه إذا فعل بعطاءات ملكية، وأنذروه بالعقاب إذا رفض. لكنّ الصوفيّ أجابهم قائلاً، ليس الإسكندر ابن زيوس، لأنه لا يمتلك حتّى قبضة تراب؛ وأنا لست بحاجة إلى عطاءات عاجز عن إشباع نهمه هو نفسه؛ ولا أخاف وعيده، ففي حياتي تكفيني الهند مطعمة، وفي موتي خلاص لنفسي من أهواء جسدي، وانتقالي إلى حياة أفضل وأكثر نقاء. فأعجب الإسكندر بماندانيوس ووافقه رأيه.

69- ويروي المؤرّخون ما يلي أيضاً. يعبد الهنود زيوس اومبريوس، ونهر الغانج، وآلهة محلّية، وفي كلّ مرّة يغسل الملك فيها شعره يقيمون احتفالاً كبيراً ويرسلون هدايا كبيرة، ويسعى كلّ منهم خلال الاستراحات إلى إظهار مدى ثرائه. ويروون أيضاً، أن بعض النمل الحافر الذهب(51) له أجنحة. ويحملون الرمال الذهبية نزولاً مع مجرى النهر، كما هي الحال في أنهار إيبيريا. وفي أوقات المواكب الاحتفالية، يقودون كثيراً من الفيلة المزيّنة. بحليّ ذهبية وفضيّة، وتشارك في المواكب أيضاً كثرة من المركبات التي تجرها أربعة جياد، وأخرى تجرها الثيران. وتسير بعد ذلك القوّات في زيّها الاستعراضي؛ ثمّ يحملون الآنية الذهبية وفيها مراجل كبيرة، وأكواب سعة الواحد منها أورغيا، يلي ذلك الطاولات، والكراسي، والكؤوس، والمغاطس المصنوعة من النحاس الهندي، وأكثر هذه الأشياء مطعّم بالحجارة الكريمة، والزمرّد، والياقوت الهندي؛ كما أنّ ملابس المشاركين في الموكب ملوّنة ومطعمة بالذهب؛ ووراء هذا كلّه تسير الجواميس، والفهود، والأسود المروّضة، وكثرة كثيرة من شتّى أنواع الطيور التي تشدو. ويذكر كليتارخ مركبات بأربع عجلات تحمل أشجاراً أوراقها كبيرة تقف عليها أنواع شتّى من الطيور الداجنة. ويقول كليتارخ إن

غنـاء الأوريـون[52]، كـان الأعـذب بـين هـذه الطيـور كلهـا، بينمـا كـان الكاتريـه[53] أروعها شـكلاً وأكثرهـا تلوّنـاً. فهـذا الطـائر هـو الأكثـر شـبهاً بالطـاوس. ومـن يرغـب بمزيد من الوصف يمكنه الرجوع إلى كليتارخ.

70- ويعاكس الكتّاب البراهمن بالبرامنيين كفئة خاصة من الفلاسفة الـذين ينزعون نحو السجال والدحض. ويهزأ هؤلاء الفلاسفة بالبراهمن الذين يشتغلون بدراسـة ظـاهرات الطبيعـة، وعلـم الفلـك، ويـرون فـيهم متشـدّقين وحمقـى. ويـدعى فريـق مـن البرامنيين «جبليين» ويدعى آخرون منهم «عراة»، ويـدعى فريق ثالـث «مـدينيين»، ورابـع «جيرانـاً». ويرتـدي البرامنيـون الجبليـون جلـود الأيائـل، ويحملـون أجربـة مليئـة بالجـذور والعقاقير الدوائية، فهـم يـرون أنفسـهم ضـليعين في شـؤون المداواة باسـتخدام الشـعوذة، والرّقـى، والتمـائم. أمّـا البرامنيـون العـراة، فهـم كمـا تـدل تسـميتهم، يتجوّلـون عـراة، ويقضون أكثر أيامهم في العراء، ويتدرّبون على الصبر حتّى سـن 37، كمـا كنـت قـد أسلفت القول[54]. وتعيش معهم زوجـاتهم، لكنّهم لا يعاشـروهن. ويكـنّ الهنـود احترامـاً خاصاً لهؤلاء الفلاسفة.

71- أمّـا البرامنيـون المـدينيون، فـإنهم يرتـدون الملابـس الكتانيـة، ويعيشـون في المدينة أو في القرى، حيث يرتدون هنا جلود الأيائـل أو جلـود الغـزلان. والهنـود علـى وجـه العمـوم يرتـدون الثيـاب البيضـاء سـواء البيضـاء الكتانيـة، أو تلـك الـتي تصـنع مـن المنسوجات الورقية، لكنّ هذا يتعارض مع ما يرويه الكتّـاب الـذين يزعمـون أنّ الهنـود يرتدون ملابس زاهية مزركشة. ويطلق الهنود كلّهم لحـاهم وشـعر رؤوسـهم، ويعقـدون على رؤسهم عصابات من القماش.

72- ووفق رواية أرتيميدور أنّ الغانج يجري من الجبـال الإمودية جنوبـاً؛ وعنـدما يصل النهر إلى مدينة غانج ينعطف شرقاً حتّى باليبوفرا والمكان الذي يدخل فيه البحـر. ويذكر أرتيميدور واحداً من روافد الغانج، هو نهر إيدانا الذي يقول الكـاتب، إنه يعجّ بالتماسيح والدلافين. كما ينقل أيضاً بعض الأخبـار الأخـرى، لكنّـه ينقلها بكـثير مـن الغمـوض والإربـاك، الأمـر الـذي يجعلنـا نهملها. ويمكننـا أن نضيـف إلى القصـص الـتي سيقت هنا، رواية نيقولا الدمشقي.

73- يروي هذا الكـاتب، إنه قيّض له أن يلتقي يوماً في أنطاكيا، قرب دافنـا، سفراء هنود كانوا متوجهين إلى قيصر أغسطس. وكانت الرسالة المرفقة تحمل أسماء عدد أكبر من المبعوثين، بيد أنه لم يبق منهم على قيد الحياة سوى ثلاثة (وهم السفراء

الذين يقول إنه قابلهم)؛ وكان أكثر الآخرين قد قضى بسبب مشاقّ الطريق الطويلة. وكانت الرسالة مكتوبة باللغة الإغريقية على رقّ من الجلد وعليها اسم مؤلّفها بور. ومع أنّ هذا الأخير كان يسود على ستمئة ملك، إلاّ أنه قدّر عالياً جدّاً أن يحظى بشرف صداقة قيصر، وعبّر عن استعداده للسماح بعبور بلاده إلى حيث يشاء قيصر أن يعبر، كما وعد أن يقدّم العون في كلّ التدابير العادلة. على هذا النحو كان محتوى الرسالة، بحسب رواية نيقولا الدمشقي. وكان يحمل الهدايا المرسلة ثمانية عبيد عراة لا يرتدون سوى مآزر أمامية، وتفوح منهم رائحة العطر. وكانت تلك الهدايا تتألّف من: هرمس[55]، وهو إنسان مولود من غير يدين (وقد رأيته أنا بعيني)، وحيّات كبيرة طول الواحدة منها 10 أذرع، وسلحفاة نهرية طولها 3 أذرع، وحجل حجمه أكبر من حجم الحدأة. وكان مع السفراء على حدّ قوله، ذلك الشخص الذي أحرق نفسه في أثينا. ويقول أيضاً: وعلى هذا النحو فإن بعضهم يضع حدّاً لحياته من فرط اليأس وبحثاً عن الخلاص من مآسي الحاضر، وآخرون يضعون حدّاً لحياتهم من فرط السعادة، كما فعل هذا الأخير. ويواصل نيقولا روايته فيقول، فعلاً، لقد سار كلّ شيء حسب رغبة هذا الشخص؛ لكنّه رأى أنه من الضروري أن يرحل عن الحياة لكي لا يقع شيء ما يتسبب بالكدر، إذا ما بقي على قيد الحياة. ولذلك قفز إلى النار وهو مبتسم وعار إلاّ من مئزر أمامي، بعد أن دهن نفسه بالزيت. وقد كتبت الكلمات التالية على قبره: «يرقد هنا زارمانوهيغ[56]، هندي من بارغوسا أمات نفسه وفق التقليد الهندي القديم».

الفصل الثاني

1- وتأتي بعد الهند أريانا، وهي الشطر الأوّل من المنطقة الخاضعة للفرس وراء نهر الهندوس، والولايات العليا الواقعة وراء طوروس. ويحدّ أريانا من الجنوب والشمال، البحر نفسه، والجبال نفسها التي تحدّ الهند، والنهر عينه، نهر الهندوس الذي يجري بينها وبين الهند. ومن نهر الهندوس تمتدّ أريانا نحو الغرب حتّى الخطّ الذي يمتدّ من البوابات القزوينية إلى كارمانيا، وعليه، فإنها تبدو بأربع أضلاع. فتبدأ ضلعها الجنوبية من مصبّي الهندوس وباتالينا لتنتهي عند كارمانيا وعند مدخل الخليج الفارسي حيث تشكّل هناك رأساً بحرية تبرز بعيداً نحو الجنوب. ثمّ تنحني في الخليج نحو بيرسيدا. ويسكن في أريانا، أوّلاً، الأربيون الذين يحملون اسم نهر أربيس الذي يفصلهم عن الأوريتيين الذين يلونهم مباشرة. وبحسب قول نيارخس إن الأربيين يشغلون

ساحلاً يمتدّ 1000 مرحلة. ويعدّ هذا الساحل جزءاً من الهند أيضاً. ويأتي الأوريتيون بعد ذلك، وهم شعب قائم بذاته. ويبلغ امتداد الطريق البحرية على طول شواطئ هذه البلاد التي يسكنها هذا الشعب 1800 مرحلة، وعلى طول ساحل منطقة الإيختيوفاغيين التالية مباشرة، 7400 مرحلة، أمّا على طول منطقة الكارمانيين حتّى بيرسيدا فيبلغ طول هذه الطريق 3700 مرحلة. وعلى هذا النحو يكون الامتداد الكلّي لهذه الطريق 13900 مرحلة[1].

2- وساحل الإيختيوفاغيين[2] منبسط، شطره الأكبر خال من الشجر، ماعدا شجر النخيل، ونوع ما من أنواع العضاهة، والأثل. وتعاني هذه المنطقة من نقص في الماء والغلال. ويقتات الناس والحيوانات فيها على الأسماك، ويشربون مياه المطر والآبار، ولذلك فإن رائحة السمك تفوح من لحوم حيواناتهم المنزلية. ويبني الإيختيوفاغيون أكثر مساكنهم من عظام الحيتان وصدفات المحار، فيستخدمون أضلاع الحيتان عوارض، وفكوكها أبواباً؛ ويصنعون من عظام عمودها الفقري أجراناً يهرسون فيها الأسماك، بعد أن يجففوها تحت أشعة الشمس؛ ثمّ يضيفون إليها قليلاً من الدقيق ويخبزون من هذا الخليط خبزاً. ومع أنهم لا يعرفون الحديد، لكنّ عندهم مطاحن يدوية. وعلى وجه العموم ليس هذا مستغرباً، فقد كان بإمكانهم أن يأتوا بالمطاحن من أماكن أخرى. ولكن كيف يصلحون أجزاء المطحنة التي تفلّ من كثرة الاستعمال؟ إنهم يزعمون أنّهم يفعلون ذلك باستخدام الحجارة نفسها التي يسنّون عليها السهام والمزاريق المحمّاة على النار. أمّا الأسماك فهم يشوونها في أفران، لكنّهم يأكلون الكمَّ الأكبر منها نيئاً. ويصيدون الأسماك بشباك مصنوعة من ألياف النخيل.

3- وتقع فوق منطقة الإيختيوفاغيين بلاد تدعى هدروسيا، وهي أقلّ قيظاً من الهند، لكنّها أكثر حرّاً من باقي آسيا. وتعاني هذه البلاد من نقص في الغلال والماء (ما عدا فصل الصيف)، وهي على وجه العموم أفضل بعض الشيء من بلاد الإيختيوفاغيين. لكنّ هدروسيا غنية بالجذور العطرية، خاصة المرّ والناردين، فقد استخدمت قوات الإسكندر هذين النباتين أغطية لخيامها ومفارش فيها، فاستمتعت بأريجها، واستنشقت هواء نقياً. وعن سابق قصد جرت عودة القوات من الهند صيفاً، لأنّ الأمطار تهطل في هدروسيا في هذا الفصل، فتمتلئ الأنهار والأحواض المائية بالماء؛ بينما تجف في فصل الشتاء. فالأمطار تهطل في الأجزاء الشمالية العليا من البلاد، وعلى مقربة من الجبال. وعندما تمتلئ الأنهار بالماء، تروي السهول القريبة من البحر، ويظهر

في الأحواض المائية فيض من المياه. وكـان الملك قد أرسل أمامه فريقاً لحفر الآبار في الصحراء، وإعداد أماكن لاستراحته واستراحة الأسطول.

4- وبعد أن قسم الإسكندر قواته إلى ثلاثة أقسام، عبر هدروسيا على رأس واحد منها. واتخذ في غضون ذلك طريقاً لا تبعد عن البحر أكثر من 500 مرحلة، وكان هدفه من ذلك، هو ترك فرصة للأسطول لكي يستخدم الساحل. وفي بعض الأحيان كان الإسكندر يقترب من البحر مباشرة، مع أن الشواطئ كانت وعرة وصخرية. وقبل أن ينطلق، كان الإسكندر قد أرسل عبر المنطقة الداخلية القسم الثاني من قواته وعلى رأسها كراتر الذي كان عليه أن يخضع أريانا أيضاً، ويصل قبله إلى المكان نفسه الذي توجه إليه الإسكندر. وعهد الإسكندر بقيادة الأسطول إلى نيارخس وأونيسيكريتيس الذي كان الرّبان الأكبر، وأمرهما باختيار الأمكنة الملائمة للاستراحات، والإبحار وراء القوات على طول الشاطئ بموازاة طريق مسيرها.

5- وبحسب نيارخس أن الملك نفسه بدأ إبحاره في الخريف لدى ظهور الثريا في الغرب، حيث كان قد اجتاز هدروسيا. ولم تكن الرياح باتت مواتية بعد، كما هاجم البرابرة المقدونيين في محاولة لطردهم. ويتابع نيارخس قائلاً، إنه مع رحيل الملك نشط البرابرة وباتوا يتحرّكون بحرّية. أمّا كراتر فبعد أن أقلع من هيداسب تحرّك عبر منطقة الأراخوتيين والدرانغيين إلى كارمانيا. وكان على الإسكندر أن يتحمل نكبات كثيرة على طول طريق عبوره، لأنه كان يسير عبر منطقة شحيحة خاوية. وكانت المؤن تأتي إليه من أماكن بعيدة وبكميات محدودة جداً، وعلى فترات متباعدة، لذلك كانت القوات تعاني من الجوع. كما كانت حيوانات النقل تنفق، فيضطرون إلى رمي أحمالها على الطرقات، أو أبقائها في المعسكر. ولم ينقذ القوات من الجوع سوى شجر النخيل: لم تأكل القوات ثمره فقط، بل «كرنبه»[3] أيضاً. وعلى أيّ حال كان الإسكندر، على حدّ قولهم، يدرك صعوبات الحملة قبل انطلاقه بها. لكنّه كان يضمر مقصداً ذاتياً كان فيه كثير من الغطرسة وحب الذات (فقد كان شائعاً أن سميراميس فرّت هاربة من الهند ومعها حوالي 20 نفراً، أمّا قورش فلم يصل معه سوى 7 أنفار فقط): أفلا ينجح هو في تجاوز هذه الصعوبات ويقود هذا الجيش الجرار عبر تلك البلاد نفسها[4]، ويخرج منها سليماً مع قواته.

6- وعلاوة على فقر البلاد، نالته معاناة شديدة من قيظها الحارق ورمالها العميقة الملتهبة، ففي بعض الأماكن كانت تواجهه كثبان رملية عالية إلى حدّ بدا

فيـه أن القـوات تواجـه صـعوبة في الحركـة كمـا لـو كـان واحـدهم ينتـزع قدميـه مـن حفرة، لكنّهم كانوا يصعدون تارة وينحدرون تارة أخرى. ونزولاً عند ضرورة [البحث] عن آبار، اضطروا إلى عبور مراحل بطول 200 أو 300، وأحياناً 600 مرحلة، كانوا يتحرّكـون أثناءهـا لـيلاً بشـكل أسـاس. ولكـنّهم كـانوا يقيمـون معسـكراتهم علـى مسافة 30 مرحلة من البئر، كي لا يشرب الجنود كثيراً من الماء. وفعلاً كان كثير من الجنود يرمي بنفسه إلى البئر وهو في سلاح الميدان الكامل، ويعبّ الماء كما لو كان يغرق. ثمّ لا يلبث هؤلاء أن يفارقوا الحياة، فتنتفخ جثثهم وتطفوا على سطح الماء، وبذلك تغدو مثل هذه الآبار على قلّتها، غير صالحة للاستخدام. وكان جنود آخرون أضناهم الظمأ يستلقون وسط الطريق تحت أشعة الشمس الحارقة يحتضرون وهم في حالة اختلاج، أيديهم وأرجلهم ترتجف كما لو كان قد أصابهم وباء. وكان بعضهم ممن ضلّ طريقه مصادفة، يغفو مستسلماً للنوم والإرهاق. كما كان ثمّة من يتخلّف عن المسير فيضل بين الدروب ويهلك بسبب نقص كلّ ما هو ضروري، كما بسبب القيظ أيضاً؛ أمّا ما تبقى فقد كانوا ينجحون في تخطّي الصعوبات كلّها وينجون بحياتهم. وهلك كثير من المعدات والناس في أمواج السيول الجبلية التي كانت تنهال ليلاً على حين غرّة، وهلك في غضون ذلك كثير من المعدات والمقتنيات الملكية. ومرّة عندما ضلّ الأدلاّء الطريق بسبب عدم معرفتهم بها، وتوغلوا عميقاً في داخل البلاد، وغاب البحر من دائرة رؤياهم، لاحظ الملك هذا الخطأ فوراً وأرسل من يبحث عن الشاطئ. وحينما عثروا عليه، وحفروا بئراً، ورأى المياه العذبة، أرسل يستدعي القوات، ثمّ سار 7 أيام على مقربة من الشاطئ الذي كانت فيه وفرة من مياه الشرب. وانعطف بعد ذلك إلى الأجزاء الداخلية من البلاد.

7- وكانت هناك نبتة ما أن تأكلها حيوانات النقل حتّى تنفق وعلى أفواهها زبد بعد أن تعاني حالة صرع. كما كانت هناك أيضاً نبتة شوكية تستلقي ثمارها على الأرض كالخيار، وكانت الثمار مليئة بالعصير الذي إذا ما مسّ عينيّ الكائن الحيّ، يفقد بصره. وهلك كثير من الناس الذين أكلوا ثمار النخيل قبل أن تنضج. كما كان الخطر يتمثل في الثعابين أيضاً. فقد كانت تنمو على الكثبان الرملية عشبة تختبئ فيها هذه الأخيرة؛ وكلّ من تلدغه كان يموت. ووفق الروايات أن السكّان في بلاد الأوريتيين يشبعون السهام الخشبية المقسّاة على النار، سمّاً زعافاً. ولمّا أصيب بطليموس بواحد من هذه السهام وبات قاب قوسين أو أدنى من خطر

الموت، جاء أحدهم الإسكندر في الحلم، ودلّه على جذر بساقه، وأمره أن يهرسه ويضعه على الجرح. وحينما صحا الإسكندر تذكّر الرؤيا، فأخذ يبحث عن الجذر الذي ينمو في المكان بكثرة، فوجده؛ وبعد ذلك أخذ الآخرون أيضاً يستخدمون هذا الجذر. ولمّا رأى البرابرة أن الملك عثر على الترياق، خضعوا له. ولا شك في أنّ أحداً ما كان على معرفة بوجود هذا الترياق فأخبر الملك به، أمّا التفاصيل الخرافية فقد أنشئت تدلّساً للملك. ولمّا وصل الإسكندر إلى المقرّ الملكي الهدروسي في اليوم السادس عشر بعد انطلاقه من بلاد الأورو[5]، منح قواته استراحة قصيرة ثمّ تحرّك إلى كارمانيا.

8- على وجه التقريب، هذه هي الحالة الجغرافية للجانب الجنوبي من أريانا على الساحل، وفي مناطق الهدروسيين، والأوريتيين الواقعة فوق الساحل مباشرة. إنّ أريانا بلاد شاسعة، وحتى هدروسيا تتوغّل في عمق البلاد لتصل إلى أرض الدرانغيين، والأراخوتيين، والباروباميسادس الذين يروي عنهم إيراتوسفين الآتي (فأنا لا أستطيع أن أقدّم أفضل وصف لهذه البلدان مهما كان الأمر). يقول إيراتوسفين: يحدّ أريانا من الشرق نهر الهندوس، ومن الغرب البحر العظيم، ومن الشمال جبل باروميس والجبال التي تليه وصولاً إلى البوابات القزوينية وحدود أجزائها الغربية، هي الجبال نفسها التي تفصل بارثيا عن الهند، وكارمانيا عن باريتاكينا وبيرسيدا. وعرض البلاد، هو نفسه طول نهر الهندوس من باروباميس حتّى مصبّيه، أي 12000 مرحلة (وبحسب آخرين 13000 مرحلة)؛ ويشار إلى طولها من البوابات القزوينية، كما ورد في «سجلّ محطات الطرق الآسيوية»[6]، بطريقتين: حتّى الإسكندرية التي في بلاد الآريين، من البوابات القزوينية عبر منطقة البارثيين، تمتدّ الطريق نفسها؛ ومن هنا تمرّ بعد ذلك طريق مباشرة عبر باكتريانا والممرّ الجبلي إلى أورتوسبانا حتّى تقاطع ثلاث طرقات من باكترا، وهي المدينة التي تقع في منطقة الباروباميسادس؛ وتتعطف الطريق الأخرى قليلاً إلى الجنوب من آريا نحو بروفتاسيا إلى درانغيانا؛ ويقود القسم المتبقي منها رجوعاً حتّى حدود الهند، ونهر الهندوس. وعلى هذا النحو فإن هذه الطريق عبر منطقة الدرانغيين والأرخوتيين أطول؛ ويبلغ كامل طولها 15300 مرحلة. وإذا ما أخذنا من هذا الرقم 1300 مرحلة، فإن الباقي هو طول البلاد على خطّ مستقيم: 14000 مرحلة. ويبلغ طول الخطّ الساحلي أقلّ بقليل[7] من هذا، مع أنّ بعض الكتّاب يبالغون في طوله الكلي، فيزيدون إلى 10000 مرحلة كارمانيا التي تمتدّ

على 6000 مرحلة. ومن الواضح أن هؤلاء يحسبون هذا الطول بعد إضافة الخلجان، أو مع قسم الساحل الكارماني الممتدّ داخل الخليج الفارسي. وعلى وجه العموم، فإنّ تسمية أريانا تنسحب على شطر من فارس وميديا، كما على الأجزاء الشمالية من بلاد الباكتريين والسوغديين. فهذه الشعوب تتحدّث لغة واحدة تقريباً، مع بعض الشذوذ الذي لا أهمية له.

9- أمّا التوزّع الجغرافي للشعوب فهو على النحو الآتي: على مجرى الهندوس يعيش الباروباميسادس، ويعلو فوقهم جبل باروباميس؛ وأبعد نحو الجنوب يسكن الأراخوتيون، وأبعد منهم جنوباً يقطن الهدروسينيون مع القبائل الأخرى التي تشغل الساحل. ويجري الهندوس على طول مناطق هذه القبائل كلّها، على دائرة عرض هذه الأماكن. وبعض هذه المناطق الواقعة جزئياً على طول نهر الهندوس والتي كانت سابقاً للفرس، يملكها الهنود الآن. وقد انتزع الإسكندر هذه الأراضي من الأريانيين، وبنى هناك مستوطناته الخاصة، لكن سلوقس نيكاتور أعادها إلى ساندروكوت؛ فقد وقع اتفاقاً مع هذا الأخير قضى بالتزاوج الشرعي بين الفريقين الهندي والإغريقي المقدوني، وحصل لقاء ذلك على 500 فيل. وفي غربي بلاد الباروباميسادس يسكن الآريون، وعلى امتداد أراضي الأراخونيين، أو الهدروسيين يسكن الدرانغيون. ويعيش الآريون على طول بلاد الدرانغيين في الشمال والغرب، كما لو أنهم يطوّقون شطراً من منطقتهم. أمّا باكتريانا فهي تقع إلى الشمال على طول آريا وبلاد الباروباميسادس؛ وفي هذه المنطقة انحدر الإسكندر عبر القفقاس متّجهاً نحو الباكتريين. وفي الغرب وراء الآريين مباشرة يعيش البارثيون، وتقع المنطقة القريبة من البوابات القزوينية. وإلى الجنوب من هذه المناطق تقع صحراء كارمانيا، ثمّ يلي ذلك باقي أجزاء كارمانيا وهدروسيا.

10- وسيغدو ما روي عن البلاد الجبلية المذكورة أكثر وضوحاً لو تتبّعنا بالتفصيل الطريق التي قطعها الإسكندر إلى باكتريانا انطلاقاً من منطقة بارثيا وهو يطارد بيّس. فقد وصل أولاً إلى أريانا، ثمّ إلى أرض الدرانغيين، حيث أمر بإعدام فيلوتوس بن بارمنيون الذي كان ضالعاً في المؤامرة. كما أرسل الإسكندر عدداً من الأشخاص الآخرين إلى إيكباتانا بمهمّة قتل والد فيلوتوس بصفته شريكاً في المؤامرة. ويروى أنّ هؤلاء اجتازوا على ظهور الهجن في 11 يوماً طريقاً يحتاج اجتيازها في الأحوال العادية إلى 30 أو 40 يوماً، ونفّذوا المهمّة. وعلى وجه العموم، يحاكي الدرانغيون

الفرس في نمط عيشهم، لكنّهم يعانون نقصاً في النبيذ؛ ويوجد القصدير في بلادهم. ومن منطقة الدرانغيين وصل الإسكندر بعد ذلك إلى اليفريجيتيين[8] (الذين أطلق قورش هذا الاسم عليهم)، والأراخوتيين. وبعد ذلك عبر بلاد الباروباميسادس لدى غروب الثريا. وهذه الأخيرة بلاد جبلية كان الثلج يغطيها في هذا الوقت، ولذلك كانت الطريق صعبة جدّاً. ومع ذلك كان هناك كثير من القرى الغنية بشتّى أصناف السلع التموينية، ما عدا زيت الزيتون؛ وقد استقبل سكّانها الجنود وخففوا من معاناتهم. وكانت ترتفع من جهة اليسار قمم جبلية. فالأجزاء الجنوبية من جبل باروباميس تعود للهند وأريانا، أمّا أجزاؤه الشمالية فالغربية منها للباكتريين، والشرقية للبرابرة [جيران] الباكتريين. وهنا قضى الإسكندر فصل الشتاء، حيث الهند على يمينه من فوق، وبنى المدينة في المكان؛ ثمّ عبر القمة إلى باكتريانا عبر الطرقات التي تمرّ في المكان الخالي من أي نباتات، ما عدا شجيرات نادرة صغيرة تشكل نجيمات متباعدة. وكان الشحّ في المؤن قاسياً إلى درجة اضطروا عندها إلى استهلاك لحوم حيوانات النقل نيئة بسبب عدم وجود أيّ حطب. ولدى استخدام اللحوم النيئة في الطعام، كان نبات السلفيوم الذي ينمو [هناك] بكثرة وسيلة ساعدتهم على سلقه. وبعد 15 يوماً من بناء المدينة، ترك الإسكندر معسكره الشتوي وجاء إلى أدرابسا[9]، وهي مدينة تقع في باكتريانا.

11- وفي مكان ما من أجزاء البلاد هذه، المجاورة للهند، تقع هآرينا. ومن بين كلّ المناطق الخاضعة للبارثيين، هذا المكان هو الأقرب إلى الهند. فهو يبعد عن أريانا[10] (عبر بلاد الأراخوتيين والبلاد الجبلية التي ذكرناها) 9 أو 10 آلاف مرحلة[11]. وقد اجتاز كراتر هذه المنطقة وأخضع سكّانها العصاة المتمرّدين، مسرعاً عبر أقصر الطرق للالتحاق بالملك؛ وفي وقت واحد تقريباً التقى قسما القوات فعلاً في كارمانيا. وبعد بعض الوقت وصل نيارخس على رأس أسطوله إلى الخليج الفارسي، بعد أن نزلت به نكبات كثيرة خلال تيهه، وعانى من الحرمان والأخطار التي مثلتها الوحوش البحرية العملاقة.

12- وعلى وجه العموم قد يكون هؤلاء البحارة بالغوا في أشياء كثيرة، ومع ذلك فإن قصص هؤلاء الناس تبيّن بوضوح المعاناة التي كابدوها، لأنّ فيها من الخوف من البلوى أكثر مما فيها من المعاناة من خطر البلية الحقيقية. فقد كان رعبهم الأكبر من حيتان العنابر المهولة التي كانت تقذف من فتحات رؤوسها شخبات مائية

شديدة، وسحباً من رذاذ الماء تجعل من الصعب على البحارة أن يميّزوا حتّى الأشياء التي تحت أقدامهم. وكان ربابنة السفن يخبرون الجنود الذين أخذ بهم الخوف كلّ مأخذ، لأنهم كانوا يجهلون سبب هذه الظاهرة، إن حيوانات بحرية هي التي تحدثها، وسرعان ما كانت هذه الأخيرة تتفرّق، بحسب رواياتهم، فور سماعهم أصوات الأبواق والصخب. ولذلك كان نيارخس يخيف هذه الحيوانات بصخب المجاديف، إذ يوجّه عمارته إلى المكان الذي كانت الحيوانات تعوق فيه عبور السفن، وفي الوقت نفسه كان يستخدم أصوات الأبواق أيضاً لطردها. وفي أوّل الأمر كانت حيتان العنابر تغوص في عمق الماء، لكنّها كانت لا تلبث أن تظهر من جديد بحثاً عن القوت، وعلى هذا النحو كانت ترتسم لوحة معركة بحرية. لكنّها على وجه العموم سرعان ما كانت تتفرّق.

13- وكلّ من أبحر إلى الهند في زمننا هذا يتحدّث عن الأحجام العظيمة لهذه الحيوانات، وعن ظهورها من وقت لآخر؛ ولكنّهم يقولون، إن حيتان العنابر لا تهاجم بقطعان كبيرة، وإن الصخب وأصوات الأبواق تطردها وترغمها على أن تتفرّق. وعلى حدّ قولهم إن حيتان العنابر لا تقترب من الشاطئ كثيراً، لكنّ الأمواج تقذف عظام الحيوانات الميتة التي تساقط لحمها إلى الشاطئ بسهولة حاملة بذلك للإختيوفاغيين المادّة الأولية اللازمة لبناء أكواخهم، كما أشرنا سابقاً. ووفق نيارخس إن حجم الواحد من هذه الحيتان 23 أورغيا. ويقول، إنه بيّن خطأ القصة التي كانت شائعة في أوساط بحارة أسطوله: لقد كان البحارة على يقين بأن جزيرة ما تقع على طريقهم، وأن كلّ من يرسو عندها يختفي. ثمّ يتابع نيارخس روايته قائلاً، ثمّة سفينة صغيرة دنت فعلاً من هذه الجزيرة، ولم يرها أحد بعد ذلك؛ فأرسل عدد من الرجال للبحث عنها، لكنّهم داروا حولها ولم يجرؤوا على الرسوّ عندها، ونادوا على الرجال الذين اختفوا هناك من بعيد، ولمّا لم يجبهم أحد، عادوا أدراجهم. ومع أن جميعهم عدّ الجزيرة سبب اختفاء هؤلاء الناس، إلاّ أن نيارخس، على حدّ قوله هو نفسه، أبحر إلى هناك ورسا عند الجزيرة، ونزل عليها مع عدد من مرافقيه وجال عليها. وبما أنه لم يعثر حتّى على أثر للمفقودين، عزف عن متابعة البحث. ولدى عودته أعلن أمام البحارة، أنه من العبث اتهام الجزيرة بأنها سبب اختفاء الناس (وإلاّ لجرى له ومن كانوا معه على الجزيرة الشيء نفسه الذي جرى للآخرين)، وإن السفينة هلكت لسبب آخر، فثمّة آلاف الأسباب لذلك.

14- إنّ كارمانيا هي آخر بلاد على الساحل إذا أنطلقنا من نهر الهندوس، على الرغم من أنها تقع بعيداً إلى الشمال من مصبّه. وتبرز أولى رؤوسها البحرية نحو الجنوب في عرض البحر الكبير؛ وبعد أن تشكل مدخلاً إلى الخليج الفارسي مع الرأس التي تمتدّ من العربية السعيدة وتظهر للعيان، تتعطف كارمانيا نحو الخليج الفارسي إلى أن تصل إلى بيرسيدا. وكارمانيا منطقة شاسعة، وفي الشطر الداخلي من البلاد تمتدّ بين هدروسيا وبيرسيدا، ثمّ تحيد بعد هدروسيا شمالاً. وهذا ما تؤكّده خصوبتها أيضاً. فكارمانيا غنية بشتّى أصناف الثمار، ويكثر فيها الشجر الكبير، ما عدا شجر الزيتون؛ وتروي الأنهار هذه المنطقة. أمّا هدروسيا فهي على العكس، إذ قلّما تختلف في شيء عن بلاد الإيختيوفاغيين، ولذلك غالباً ما تعاني من شح المحاصيل. وهذا ما دفع السكّان إلى تخزين الفائض من محاصيلهم لسنوات عدة. وبحسب أونيسيكريتيس إنّ نهراً ما في كارمانيا يحمل تياره رمالاً ذهبية مع مجراه؛ وهناك أيضاً مناجم يستخرجون منها الذهب، والفضّة، والزّنجفْر، كما يوجد في المكان جبلان: أحدهما يحتوي على الآورو[12]، والآخر على الملح. وفي كارمانيا صحراء تتاخم[13] بارثيا وباريتاكينا. والسلع الزراعية فيها كتلك التي في بيرسيدا: عرائش العنب مثلاً. فمن هذه الأخيرة تخرج ما يدعى عندنا عرائش كارمانيا، التي يصل طول عناقيدها في أحيان كثيرة إلى ذراعين، وهي تحمل كثيراً من حبّات العنب الكبيرة. وقد يكون نموّ هذه العرائش في كارمانيا أكثر كثافة ونضارة مما عندنا. وبسبب نقص الخيل يستخدم أكثر سكّان كارمانيا الحمير حتّى في الحرب، كما يقدّمون الحمار ذبيحة لأريس، الإله الوحيد الذي يعبدون؛ إنها قبيلة محاربة. فلا يتزوّج أيّ من أفرادها إلاّ بعد أن يأتي برأس عدوّ إلى الملك. ويضع الملك الجمجمة في المقرّ الملكي، بعد أن يقطّع لسانها إلى قطع صغيرة يخلطها مع الدقيق ويتذوّق الخليط بنفسه ثمّ يدفع بالباقي إلى من أتى بالرأس ليأكله مع باقي أفراد بيته. ويعدّ الملك الذي يحملون إليه أكبر عدد من الرؤوس الملك الأكثر عظمة. ويرى نيارخس أن أكثر تقاليد الكارمانيين ولغتهم فارسية وميدية. ولا يستغرق اجتياز المدخل إلى الخليج الفارسي أكثر من يوم واحد.

الفصل الثالث

1- بعد كارمانيا تقع بيرسيدا. ويقع شطر كبير من هذه المنطقة على ساحل

الخليج الـذي دعـي باسمها. لكـنّ شـطراً أكـبر بكـثير يقـع في داخـل الـبلاد، أكثـره بالطول، من الجنوب ومن كارمانيا نحو الشمال وإلى القبائل الميدية. وتنقسم بيرسـيدا من حيث خاصياتها الطبيعية، وتبعاً لشروطها المناخية، إلى ثلاثة أقسام. والقسم الأوّل منها - الساحل - قائظ رمليّ وفقير تماماً بالغلال، ما عدا البلح والتمر. ويبلغ طـول الساحل كما يحدّدونه، 4400 أو 4300 مرحلة تقريباً؛ وهو ينتهي عند أكبر أنهار هـذه البلاد، الذي يدعى أورواتيدا. أمّا القسم الثاني الذي يقع فوق الساحل، فهو عبارة عن سهل غني بالغلال، ومعلف لا مثيل له للمواشي، وفيه كثير من الأنهار والبحيرات. ويقـع القسم الثالث في الشمال، وهو أرض باردة وجبلية؛ ويعيش على حدودها رعاة الإبل. وبحسب إيراتوسفين إنّ طول هذه البلاد باتجاه الشمال والبوابات القزوينية، قرابـة 8000 مرحلة، بما في ذلك من بعض الرؤوس البحرية البارزة[1]؛ أمّا طول الشطر الباقي باتجاه البوابات القزوينية، فهو لا يتعدّى 2000 مرحلة[2]. وفيما يخصّ عرض بيرسيدا، فإنه في الشطر الداخلي من سوزا إلى برسيبوليس يبلغ 4200 مرحلة، ومن هناك إلى أطراف كارمانيا 1600 مرحلة أخرى. وتعيش في هذه البلاد القبائل التي تـدعى الباتيسهوري، والأخمينية، والماغية. ويسعى الماغيون إلى بلوغ النقاء في حياتهم؛ أمّا الكيرتيون والمارديون فيمارسون السلب والنهب، ويعمل الآخرون بالزراعة.

2- وتعدّ سوسيدا بمثابة جزء من بيرسيدا، وهي تقع بين بيرسيدا وبابل؛ وأهم مدينة فيها هي مدينة سوزا. وإذ رأى الفرس وقورش بعد إخضاع الميديين، أنّ بلادهم تقع إلى حدّ ما على أطراف دولة عظمى، بينما تقع سوسيدا بعيداً في أعماق البلاد، وأقرب إلى بابل والقبائل الأخرى، أسّسوا هناك المقرّ الملكي لدولتهم. وفي الوقت نفسه قدّر الفرس أهمية الموقع الحدودي لهذه البلاد حق قدره، والأهمية الكبيرة للمدينة، ورأوا حقيقة أن سوسيدا نفسها لم تنخرط يوماً في أيّ أعمال كبيرة، وهذا ما كان له أهمية خاصة بالنسبة إليهم، بل كانت دوماً خاضعة للغرباء، كما كانت تعدّ جزءاً من بنية دولة أكبر (ربّما ما عدا حقبة الزمن البطولي). والحقيقة كما يروى، أن تيفون بن ممنون هو الذي أسّس سوزا؛ ويبلغ امتداد محيط المدينة 120 مرحلة بشكلها المتطاول. وكان أكربوليس سوزا يدعى ممنونيوس، كما حمل سكّان المدينة أيضاً اسم كيسيين؛ ويدعو إيسخيليوس[3] والدة ممنون كيسيا. ويقال، إن ممنون مدفون قرب بالس (مسكنة الآن) في سوريا عند نهر بادا، كما يقول سيمونيدس في أمدوحة عنوانها «ممنون»، وهي واحدة من ملاحمه الديلوسية. وبحسب بعضهم أن أسوار سوزا،

وحرمها، وقصر الملك فيها بنيت كلّها على غرار منشآت بابل من الآجرّ المشوي والإسفلت. ويقول باليكليتيس، إن محيط المدينة كان يبلغ 200 مرحلة، ولم يكن محاطاً بالأسوار.

3- لقد زيّن الفرس قصر سوزا وزخرفوه أكثر من القصور الأخرى، لكنّ تقديرهم واهتمامهم بالقصور الأخرى في برسيبوليس وباسارهادا لم يكن أقلّ. وعلى أيّ حال كانت الخزنة، والكنوز، والمقابر الفارسية كلّها هناك، لأنّ هاتين المدينتين كانتا مدينتين حصينيتين ومكرّستين بأمجاد الأسلاف. وكانت هناك قصور أخرى أيضاً: في غابي الواقعة في مكان ما في الأجزاء الشمالية من بيرسيدا وعلى الساحل قرب تاوكا. لقد كانت هذه القصور تنتمي إلى زمن السيطرة الفارسية. أمّا ملوك الأزمنة الأحدث فقد كانت عندهم قصور أخرى أقل فخامة، وهذا أمر طبيعي، لأنّ بيرسيدا كانت قد دخلت طور الانهيار، لا في زمن السيطرة المقدونية فقط، بل زاد الأمر سوءاً في زمن السيطرة البارثية كذلك. ومع أن الملوك الفرس لا يزالون يملكون على فارس حتّى يومنا هذا، إلاّ أن هؤلاء فقدوا قدراً كبيراً من نفوذهم ويخضعون للملك البارثي.

4- تقع سوزا في الشطر الداخلي من البلاد على نهر خواسب، وبعد الجسر تمتدّ منطقة سوسيدا حتّى البحر. أمّا ساحل سوسيدا فيمتدّ حتّى مصب دجلة تقريباً، من حدود الساحل الفارسي ما يقارب 3000 مرحلة. ويجري نهر خواسب عبر سوسيدا ليصل إلى الساحل نفسه، انطلاقاً من منطقة الأوكسيين. وتخترق الحيّز الفاصل بين سوسيدا وبيرسيدا بلاد قاسية انهدامية جبلية فيها كثير من الأخاديد العصيّة؛ ويعيش فيها قطّاع الطرق الذين يفرضون المال [4] حتّى على الملوك عندما يعبر هؤلاء من سوزا إلى بيرسيدا. وبحسب بوليكليتيس إنّ خواسب، ويوليه، ودجلة نفسه تصبّ كلّها في بحيرة ما، ثمّ تخرج من هذه البحيرة لتصبّ في البحر. ويقول، إن ميناء تجارية تقع قرب هذه البحيرة وبما أن الأنهار لا تسطيع بسبب الأحواض المائية [الاصطناعية] أن تستقبل الشحنات من البحر وتعوم بها، فإن الشحنات كلّها تسلك الطريق البرّية. ويقال، إن المسافة إلى سوزا 800 مرحلة[5]. لكنّ آخرين يقولون، إن الأنهار التي تجري عبر سوسيدا تجتمع في مجرى واحد، هو على وجه التحديد مجرى دجلة، قبالة قنوات الفرات الوسطانية. ولذلك يدعى دجلة عند مصبّاته باسيدجلة[6].

5- وبحسب نيارخس إن مياه ساحل سوسيدا ضحلة، وتنتهي عند مصبّ الفرات.

وتقع على مصبّ الفرات قرية تستقبل البضائع الواردة من العربية، لأنّ الساحل العربي يتاخم مصبّ الفرات وباسيدجلة مباشرة. وتشغل الحيّز الفاصل كلّه بحيرة هي البحيرة التي يصبّ فيها دجلة. وإذا ما ركبت دجلة 150 مرحلة صعوداً، يلقاك جسر عائم يقود من بيرسيدا إلى سوزا؛ ويقع الجسر على بعد 60[7] مرحلة عن سوزا؛ أمّا باسيدجلة فيبعد عن أورواتيدا ما يقارب 2000 مرحلة. ويبلغ طول الطريق صعوداً عبر البحيرة حتّى مصبّ دجلة 600 مرحلة. وقرب المصبّ على بعد 500 مرحلة من سوزا تقع قرية سوزيانية؛ ويبلغ امتداد الطريق المائية داخل البلاد من مصبّ الفرات حتّى بابل عبر منطقة كثافتها السكّانية عالية، أكثر من 3000 مرحلة. ووفق رواية أونيسيكريتيس، إن الأنهار كلّها، بما فيها الفرات ودجلة، تصبّ في البحيرة؛ لكنّ الفرات يخرج منها بعد ذلك ويصبّ في البحر عبر مصبّ خاص به.

6- وإذا ما سرنا عبر منطقة الأوكسيين بجوار بيرسيدا نفسها، فسنلقى عدداً من الأخاديد الأخرى. وقد شقّ الإسكندر لنفسه طريقاً بالقوة أيضاً عبر هذه الأخاديد عند البوابات الفارسية والأماكن الأخرى؛ فاجتاز هذه البلاد على عجل، لكي يجمع معلومات عن أهمّ مواقعها، وخزائنها التي امتلأت بالكنوز خلال هذا الزمن الطويل كلّه الذي كان الفرس يجمعون فيه الإتاوات من آسيا. وعدا عن ذلك تأتّى للإسكندر أن يعبر عدداً من الأنهار التي تجري عبر هذه البلاد لتصبّ بعد ذلك في الخليج الفارسي. وفعلاً، بعد خواسب يقع نهر كوبرات ونهر باسيدجلة؛ ويجري هذا الأخير من منطقة الأوكسيين. وثمّة آخر أيضاً هو نهر قورش الذي يجري عبر ما يسمّى كيليبيرسيدا[8]، قرب باسارهادا. وكان ملك الفرس قد اتخذ لنفسه اسم هذا النهر، فبدّل اسمه من أهرادات إلى قورش. لقد اجتاز الإسكندر أراكس عند برسيبوليس مباشرة. وبعد سوزا تميّزت برسيبوليس أكثر ما تميّزت بجمال بنيانها وكبر حجمها؛ وكان فيها قصر اشتهر أكثر ما اشتهر بالكنوز التي كانت مخزونة فيه. ويجري أراكس من منطقة البارياتاكيين، ويلتقي معه في مجرى واحد نهر ميد الذي ينبع من ميديا. وتجري هذه الأنهار كلّها في واد شديد الخصوبة يتاخم كارمانيا والأجزاء الشرقية من البلاد، مثله في هذا مثل برسيبوليس نفسها. لقد أضرم الإسكندر النار في قصر برسيبوليس ثأراً للإغريق، الذين دمّر الفرس معابدهم ومدنهم بالنار والسيف.

7- وحلّ الإسكندر بعد ذلك في باسارهادا التي كانت بدورها عاصمة قديمة. وهنا في الحديقة رأى الملك ضريح قورش عبارة عن برج صغير يخفيه دغل شجره

كثيف؛ وفي الأسفل كانت قاعدة البرج جسيمة، وفي الأعلى تحت السقف كان هناك ديماس مدخله ضيّق جدّاً. وبحسب رواية أريستوبول، أن الملك أمره أن يدخل عبر هذا المدخل ويزيّن الضريح، ففعل. وقد رأى هناك مرقداً ذهبياً، وطاولة عليها كؤوس، وناووساً ذهبياً، وكثيراً من الملابس والحليّ المطعّمة بالحجارة الكريمة. لقد رأى أريستوبول هذا كلّه لدى دخوله إلى هناك أوّل مرّة؛ ولكنّ الضريح نهب بعد ذلك وسرقت محتوياته كلّها، ما عدا المرقد والناووس اللذين اكتفى اللصوص بتقطيعهما إلى كسرات، لكنّ اللصوص حملوا الرفات إلى مكان آخر، وهو الأمر الذي أكّد أن ما جرى للضريح هو من فعل لصوص، وليس من فعل والي، لأنّ هؤلاء لم يتركوا في الضريح إلاّ الأشياء التي يصعب حملها. لقد نهب الضريح على الرغم من حراسة الماغي له، وكان هؤلاء يتلقون لقاء ذلك كلّ يوم نعجة وكلّ عام فرس(9). ومثلما كان إرسال قوات الإسكندر في حملة بعيدة إلى باكترا والهند قد أثار على وجه العموم كثيراً من الأحداث غير العادية، كذلك تدنيس ضريح قورش كان سابقة لا مثيل لها. إنّ هذه هي رواية أريستوبول الذي ساق النقش التالي أيضاً: «امرؤ! أنا - قورش باني دولة الفرس العظمى، وأنا كنت ملك آسيا. ولذلك لا تحسدني على هذا النصب». وعلى وجه العموم يروي أونيسيكريتيس أن البرج كان يتألّف من عشرة طوابق، وفي الطابق الأخير كان يستلقي قورش؛ وكان هناك نقش محفور بأحرف فارسية باللغة الإغريقية:

هنا أرقد أنا، قورش، الملك العظيم على الملوك؛

ونقش آخر باللغة الفارسية له المحتوى عينه.

8- ولدى أونيسيكريتيس تذكير بالنقش التالي على ضريح داريوس: «لقد كنت صديقاً لأصدقائي؛ لقد كنت الخيّال الأكثر مهارة، ورامي السهام الأكثر مهارة، والصياد الأفضل؛ لقد كان يمكنني أن أحقّق كلّ شيء!» ويروي أريستوس السلاميني، وهو كاتب أحدث عهداً من هؤلاء بكثير، أنّ البرج كان كبيراً، ولم يكن يتألّف إلاّ من طابقين؛ وأنّه بني عندما انتقلت السلطة إلى الفرس؛ وقد كان تحت الحراسة؛ وورد هناك ذكر النقش الذي أشرنا إلى أنه كان مكتوباً باللغة الإغريقية، واللغة الفارسية، وأنّ محتواه واحد. لقد أسبغ قورش آيات التشريف كلّها على باسارهادا، لأنه حقّق هناك النصر في آخر معركة ضدّ أستياغ الميدي، وادّعى السيطرة على آسيا، وأسّس المدينة وبنى قصراً فيها تخليداً لذكرى انتصاره.

9- لقد أمر الإسكندر أن تنقل الكنوز التي عثر عليها في بيرسيدا إلى سوزا، التي كانت مليئة بدورها بالكنوز والمعدّات. ومع ذلك لم يجعل الإسكندر سوزا عاصمة له، بل بابل التي عزم على زيادة بنائها؛ وكانت في هذه المدينة كنوز كثيرة أيضاً. ويروى أنه ما عدا كنوز بابل، والكنوز التي كانت في المعسكر ولم تحسب مع هذه، بلغت قيمة كنوز سوزا وبيرسيدا وحدها 40000 تالانت؛ وبعضهم يقول 50000 تالانت. ويروي آخرون إنّ الكنوز كلّها نقلت إلى إيكباتانا وقدّرت بـ 180000 تالانت. أمّا الكنوز التي حملها داريوس معه لدى فراره من ميديا فقد بلغ مجموعها 8000 تالانت، استولى عليها كلّها رجاله الذين قتلوه غدراً.

10- لقد فضّل الإسكندر بابل لأنها كانت تتفوّق كثيراً على غيرها من المدن ليس بحجمها فقط، إنما في المجالات الأخرى أيضاً. والحقيقة أن سوزا بلاد شديدة الخصوبة، لكنّ هواءها حارق خانق، خاصة حول المدينة، كما يقول هذا الكاتب[10]. وعلى أيّ حال، في الصيف عندما تبلغ حرارة الشمس ذروتها في منتصف النهار، لا يتسنّى للعظاءات والثعابين أن تجتاز الشوارع في المدينة، فتحترق في عرض الطريق. ولا ترصد مثل هذه الظاهرة في أيّ مكان من بيرسيدا، مع أنها تقع أبعد نحو الجنوب. فإذا وضع الماء البارد تحت أشعة الشمس هنا للحظات، يغدو ساخناً إلى حدّ يمكن الاغتسال به، أمّا حبات الشعير التي تنثر في أي مكان مفتوح للشمس، فإنها لا تلبث أن تبدأ بالقفز كما يحصل للحبوب التي توضع في أفران التجفيف. ولذلك يغطي السكّان سقوف منازلهم هنا، بطبقة من التراب سماكتها ذراعان، وبسبب ثقل مثل هذا السقف، يضطرون إلى بناء منازلهم ضيّقة؛ وعلى الرغم من توفّر العوارض الطويلة، إلاّ أنّ الحر الخانق يرغمهم على بناء منازل فسيحة رحبة. فعارضة النخيل تتميّز بخاصية فريدة؛ على الرغم من أنها صلبة، إلاّ أنها عندما تشيخ لا تنحني في جزئها السفلي، بل يجعلها ثقل حملها تنحني في جزئها العلوي، فتغدو بذلك صالحة أكثر لتسند السقف. ويقال إن سبب ذلك القيظ الخانق، هو الجبال العالية الواقعة في شمالي البلاد التي تصدّ الرياح الشمالية. فهذه الرياح إذ تتسرّب عبر الجبال، تهبّ من قممها نحو طبقات الجوّ العليا في سماء السهول، من غير أن تمّس هذه الاخيرة؛ ولكنّ الرياح تندفع مع ذلك نحو الأجزاء الجنوبية من سوسيدا. ولا تعرف هذه البلاد الرياح، خاصة عندما تبرِّد الرياح الموسمية باقي أنحاء البلاد التي يلفحها القيظ.

11- ومع ذلك فإن سوسيدا غنية جداً بالأقماح، إذ تعطي محصولاً من الشعير والقمح قدره مئة، وأحياناً مئتي ضعف بذاره وسطياً. ولذلك لا يمدّ السكّان ثلوماً متكرّرة كثيرة، لأنّ تراكم الجذور يعيق نموّ الشتول. ولم تكن عرائش العنب تنمو في هذه البلاد، فغرسها المقدونيون في أرضها وأرض بابل؛ ولم يحفروا لغرسها حفراً، بل اكتفوا بغرس أوتاد من الحديد في الأرض، ثمّ انتزاعها وإدخال فروع من الدوالي في مكانها مباشرة. على هذا النحو كان الشطر الداخلي من البلاد، أمّا ساحلها فمياهه ضحلة، وليس فيه موانئ. ولذلك لم يكن في البلاد، كما يقول نيارخس، مرشدون بحريون من السكّان المحلّيين عندما كان يبحر مع أسطوله من الهند إلى بابل؛ ولم يكن على الساحل محطات شرعية، ولم يستطع أن يجد أناساً ذوي خبرة يرشدون الأسطول.

12- وتجاور سوسيدا بلاد هي جزء من بابل كان يدعى سيتاكينا، ثمّ دعوه بعد ذلك أبوللونياتيدس. ويعيش إلى الأعلى من هاتين البلادين، من الشمال إلى الشرق، كلّ من العيلاميين والباريتاكينيين، وهؤلاء الأخيرون قبائل من قطّاع الطرق يتكلون على الطابع الجبلي الوعر للبلاد. ويعيش الباريتاكينيون أقرب إلى الأبوللونياتيين، ولذلك فإن تعاملهم معهم أسوأ. أمّا العيلاميون فيخوضون حرباً ضدّ هذين الشعبين كليهما وضدّ السوسيين أيضاً، لكنّ الأوكسيين يحاربون العيلاميين. بيد أنّ الحروب الآن على وجه العموم أقل، وهو أمر طبيعي نظراً لقوّة البارثيين الذين تخضع لهم شعوب هذه المنطقة من العالم كلّها. ولذلك عندما يكون البارثيون بخير تكون الشعوب التابعة لهم بخير أيضاً. أمّا عندما تبدأ الاضطرابات عند هؤلاء (وهو ما يتكرر حدوثه في أيامنا هذه)، فإن آثارها على التابعين تتباين بين وقت وآخر. فبعضهم يستفيد من الاضطرابات والقلال، بينما تنزل ببعضهم الآخر مفاجآت مؤلمة. إن تلكم هي سمات بيرسيدا وسوسيدا وخاصياتهما.

13- إنّ التقاليد والعادات الفارسية واحدة لدى هذه الشعوب، ولدى الميديانيين وكثير من القبائل الأخرى. ومع أن بعضهم كان قد نقل معطيات عن هذا، لكنّه ينبغي عليّ أنا أيضاً أن أتحدّث عمّا يخصّ موضوعي. فالفرس لا يقيمون تماثيل أو مذابح، لكنّهم يقدّمون الذبائح والقرابين في مكان مرتفع، ويعبدون السماء بصفتها زيوس. ويبجلون هيليوس الذي يدعونه ميترا، كما يجلّون سيلينا وأفروديت ثمّ النار،

والتراب، والرياح، والماء[11]؛ ويقدّمون ذبائحهم في مكان يطهّر وفق الطقوس ثمّ تقام فيه الصلوات، ويؤتى بعد ذلك بحيوان الذبيحة مضفوراً بإكليل. وعندما يقطع الماغ الذي يؤدّي الطقس المقدّس لحم الذبيحة إلى قطع، يحمل المؤمنون القطع ويمضون من غير أن يتركوا أيّ قطع للآلهة؛ فبحسب قولهم إن الإله لا يريد سوى روح الذبيحة فقط. لكنّ بعضهم يقول، إنهم يرمون في النار قطعة صغيرة من الدهن.

14- ويقدّم أكثر الذبائح عندهم للنار والماء. وتقدّم الذبائح للنار على النحو التالي: يضيفون أخشاباً جافة نظيفة من اللحاء، ويضعون الدهن فوقها؛ ثمّ يسكبون زيت الزيتون ويشعلون النار من تحت من غير أن ينفخوا فيها، لكنّهم يستخدمون مهواة كبيرة. ومن ينفخ في النار، أو يلقي فيها جثة ميتة، أو يلطخها بما هو قذر، يكون عقابه الموت. أمّا ذبائح الماء فيقدمونها على النحو التالي: يأتون إلى البحيرة، أو النهر، أو الينبوع فيحفرون حفرة وينحرون حيوان الذبيحة فوق الحفرة ليسيل دمه فيها؛ ويحاذرون في أثناء ذلك أن تلطخ الدماء الماء الموجود على مقربة، لأنهم يعتقدون إن هذا يدنّس الماء. وبعد ذلك يرمي الماغي قطع اللحم على غصن من الآس أو الغار ويلمسونها بقضبان رفيعة وهم يتلون التعاويذ والرّقى، ويسكبون زيت الزيتون الممزوج بالحليب والعسل، لا على النار أو في الماء، بل على الأرض. وتتلى التعاويذ طويلاً، وفي أثناء تلاوتها يمسك الذين يتلونها حزماً من قضبان الأثل الرفيعة.

15- وفي قبدوقيا (توجد هنا عشيرة كبيرة من الماغي الذين يدعونهم بيريفيين[12]، وعدد كبير من معابد الآلهة الفارسية)، لا يستخدمون السكين لدى نحر الذبائح، بل يستخدمون شيئاً ما يشبه قرمة الحطب يقتلون به الحيوان ضرباً. ولدى الفرس بيريفيات أيضاً، وهي هنا قطع كبيرة من الأرض المقدّسة المحاطة بأسيجة. وتقوم في وسط هذه الأراضي مذابح فيها كميات كبيرة من الرماد، فالماغي يبقون على النار مشتعلة دائماً في المذبح. ويدخل الماغي إلى هذه البيريفيات يومياً، فيتلون فيها طول ساعة تقريباً تعاويذ ورقى بينما يمسكون بحزم من الأغصان أمام النار؛ ويضعون على رؤوسهم في أثناء ذلك قبعات من اللبّاد يتدلّى طرفاها من الجانبين على وجنتيّ من يرتديها ليغطيا شفتيه. وتؤدى الطقوس والشعائر نفسها في معابد أناهيت وأومان. وثمّة في هذه المعابد قطع مسيّجة من الأرض المقدّسة، ويحملون هنا تمثالاً خشبياً لأومان يسيرون به في مواكب احتفالية. وقد قدر لي أن أشاهد هذه الشعائر بنفسي. أمّا الأخرى، وكذلك التالية بعدها، فالحديث عنها يجري في المؤلّفات التاريخية.

16- ويحاذر الفرس التبوّل في الماء، ولا يغتسلون في النهر ولا يعومون فيه؛ وهم لا يرمون المتوفّين في مائه، ولا أي شيء آخر يعدّونه دنساً. وعندما يقدّمون ذبيحة لأيّ إله كان، يرفعون صلواتهم قبل ذلك إلى النار.

17- ويحكم الفرس ملوك يتوارثون السلطة الملكية. والمتمرّد العاصي يقطعون له رأسه ويديه ويرمون جثّته. وعادة الفرس أن يتزوّج واحدهم عدة نساء ويقتني في الوقت نفسه عدة خليلات لكي ينجب كثيراً من الأبناء. وفي كلّ عام يمنح الملوك مكافآت لكلّ من لديه عدد كبير من الأولاد. ولكنّ الوالدين لا يريان أبنائهما قبل أن يبلغ واحدهم عامه الرابع. وتعقد الزيجات مع بدء الاعتدال الربيعي. ولا يدخل العريس على عروسه إلاّ بعد أن يأكل تفاحة ونخاع جمل، ثمّ يمتنع بعد ذلك عن أكل أيّ شيء في ذلك النهار كله.

18- ومن سن الخامسة حتّى الرابعة والعشرين يتدرّب الفتيان على رمي السهام من القوس، وقذف المزاريق، وركوب الخيل، وفنون العراك[13]. ولا يأخذون لتدريس العلوم إلاّ أكثر الناس حكمة، وهم الذين يشبكون معارفهم مع القصص الميثولوجية (فيسخّرون هذه لمنفعة الطلاّب)، ويروون عن مآثر الآلهة والرجال البواسل روايات مغنّاة أو من غير غناء. فقبيل الفجر يوقظ المعلمون الفتيان على أصوات الآلات النحاسية، ويجمعونهم في مكان واحد كما لو كانوا يقودونهم إلى عرض عسكري، أو في رحلة صيد. وبعد أن يوزعوهم على فرق في كلّ منها 50 نفراً، ويضعوا على رأس كلّ فرقة واحداً من أبناء الملك أو أحد أبناء الوجهاء، يأمر المعلمون التلاميذ أن يجروا وراء رئيس الفرقة بعد أن يحدّدوا مسافة للجري تتراوح بين 30 إلى 40 مرحلة. وعلاوة على ذلك يطلب المعلمون من التلاميذ أن يقدموا تقارير عن كلّ درس، ويرغموهم في الوقت نفسه على أن يتحدّثوا بصوت عال، ويمرّنوا التنفّس والرئتين، كما يعوّدونهم على تحمّل الحرّ، والبرد، والمطر، وعبور التيارات المائية الشديدة، مع المحافظة على أسلحتهم وملابسهم جافة. ويدرّبون الشبان الفرس علاوة على هذا، على رعي القطعان، وقضاء الليالي تحت السماء في العراء لا يقتاتون إلاّ على الثمار البرية، كالفستق[14] على سبيل المثال، وثمار البلوط، والإجاص البري. ويدعى هؤلاء الفتيان كارداكيين، لأنهم يعيشون عيشة بربرية (كلمة carda تعني «الرجولة» و«الروح القتالية»). لقد كان طعامهم بعد التمارين الرياضية يتألّف من الخبز، وأرغفة من الشعير، وحبّ الهال[15]، وحفنة صغيرة من الملح، وقطعة لحم مشويّ أو مسلوق؛

وشـرابهم الوحيـد هـو المـاء. ويصـيد الفتيـان علـى ظهـور الخيـل، فيرمـون المزاريـق مـن الحركـة، وكـذلك السهام، كـما يصـيدون بـالمقلاع أيضـاً. ويتمـرّن الفتيـان مسـاء علـى غـرس الأشـجار، ويجمعـون الجـذور الطبيـة، ويصـنعون الأسـلحة، ويضـفرون الشـباك والشـراك. ولا يجـوز أن يلمـس الأولاد الطريـدة المصـادة، مـع أنهـم يـأتون بهـا إلى البيـت. والملـك هـو الـذي يحـدّد مكافـآت الفـائزين في مسـابقات الجـري، وسـواه مـن أنـواع الخماسـيات[16]. ويـزيّن الفتيـان أنفسـهم بـالحليّ الذهبيـة، لأنّ الفـرس يثمّنـون بريقـه النـاري. وبسبب احترامهم لهذا البريق النـاري للذهــب، يمتنعـون عـن وضعـه مـع الميـت، ولا يحرقونه بالنار.

19- ويشارك الفرس في الحملات العسكرية مقاتلين عاديين أو قـادة، مـن سـنّ 20 حتّى سنّ 50، في سلاح المشاة أو سلاح الفرسان على حدّ سواء. ولا يتردد الفـرس إلى الأسـواق، لأنهـم لا يبيعـون ولا يشـترون. ويتـألّف تسـليح الفارسـيّ مـن تـرس مجـدول علـى شـكل المعيّن؛ ومـا عـدا الكنانـة، يحملـون أيضـاً الفـؤوس الحربيـة والنصـال الطويلـة؛ ويعتمرون على رؤوسهم قبعات من اللبّاد على شكل برج؛ ودروعهم حرشفية. ويتـألّف زيّ القـادة مـن بـزّة ثلاثيـة، وجلبـاب مـزدوج يصـل إلى الـركبتين، ولـه كمّـان طـويلان؛ ملابسهم الداخلية بيضاء والخارجية مختلفة الألـوان؛ وتيجـانهم تشـبه تلـك الـتي يرتـديها المـاغي، أحذيتهم غائرة ومزدوجة. ويتـألّف زيّ أكثـر النـاس مـن جلبـاب ثـنائي يصـل إلى وسـط السـاق، وقطعـة مـن اللبّـاد تعقـد علـى الـرأس. ولـدى كـلّ فارسـي قـوس ومقـلاع. وتتميّز وجبة الغداء لدى الفرس بالفخامـة والبـذخ: يقـدّمون إلى المائـدة ذبـائح بكـاملها، وكـميـات كـبيرة مـن شـتّى الأصـناف الأخـرى. وزخرفـة مراقـدهم، وكـؤوسـهم وسـوى ذلك من الأشياء زاهية إلى درجة أنها تبرق ذهباً وفضّة.

20- يعقـد الفـرس مجالسـهم لمناقشـة أهـمّ القضـايا وهـم يشـربون النبيـذ، فهـم يرون إنّ القرارات التي تتخذ حينئذٍ أكثر صوابية من تلك الـتي يتخـذونها وهـم في حالـة حضور ذهني. ولدى لقاء الفارسيّ أحـد معارفـه أو شخصـاً في منزلتـه الاجتماعيـة نفسـها مصـادفة في الشـارع، يقـترب منـه فيسـلّم عليـه ويقبّلـه؛ أمّـا إذا كـان الآخـر أقـلّ منزلـة فيقـدم لـه الأعلـى منزلـة خـدّه ليقبّلـه؛ ويلقـي الأشـخاص الـذين ينتمـون إلى الفئـات الاجتماعية الدنيا التحية وهم ينحنون. ويدفنون جثامين الموتى بعد طلائها بالشـمع. أمّـا المـاغي فلا يدفنون في الأرض، بل تلقى جثامينهم لتأكلها الطيور. وبحسـب التقليـد يبـاح لهؤلاء المـاغي معاشرة أمهاتهم. هذه هي تقاليد الفرس وعاداتهم.

21- وقد تكون العادات الآتية التي جاء بوليكريتيس[17] على ذكرها من عادات الفرس كذلك. فهو يقول، في سوزا يبنون على الأكروبوليس لكلّ ملك نصباً تذكارياً لعهده، على شكل مسكن خاص به، ومخزن لكنوزه، ومخازن للإتاوات التي تلقّاها. ويجمع الملوك الإتاوات فضّة من سكّان الساحل، وغلالاً من سكّان الداخل وفق ما تنتجه كلّ بلاد: أصبغة، وعقاقير طبية، وأوبار أو أصواف، أو أيّ شيء آخر من هذا القبيل، وعلى النحو نفسه المواشي أيضاً. وكان قد أقرّ هذه الإتاوات داريوس الطويل اليدين، وهو الأكثر وسامة بين الناس كلهم، ما عدا يديه اللتين كان يصل طولهما حتّى ركبتيه[18]. لقد كان أكثر الذهب والفضّة على شكل أدوات ولوازم منزلية، وكمية قليلة على شكل مسكوكات نقدية. وكان الفرس يرون إن هذين المعدنين الثمينين أكثر ملاءمة لتقديم الهدايا والخزن في المخازن. أمّا النقد فقد رأوا أنه كاف تماماً إذا غطى حركة التبادل فقط، ولذلك كانوا دائماً يصدرون مسكوكات جديدة بكمية تكفي لتغطية النفقات فقط.

22- وطباع الفرس على وجه العموم متواضعة. لكنّ الثراء الفاحش جعل ملوكهم يرسلون بعثات تجارية من آسوس إلى إيوليدا لتأتيهم بالحنطة من هناك، وأخرى إلى سوريا لتأتيهم بالنبيذ الحلموني، ومثلها إلى يوليه لتأتيهم بالماء، فمياه هذا النهر خفيفة أكثر من أيّ ماء آخر.

23- لقد صار الفرس عند الإغريق إلى أكثر البرابرة شهرة، لأنّ أيّاً من الشعوب البربرية الأخرى التي امتلكت آسيا، لم تسد عليهم. وعلى وجه العموم لم تعرف هذه الشعوب الإغريق أصلاً، والإغريق بدورهم لم يتعرّفوا إلى هؤلاء البرابرة إلاّ لماماً، وحتى في هذه الحالة عبر شائعات نائية. وعلى أيّ حال فإنّ هوميروس لم يكن على علم بوجود الدولة السورية، ولا بوجود الدولة الليدية. فهو يذكر طيبة المصرية، ويشير إلى ثروات فينيقيا، لكنّه لا يأتي على ذكر ثراء بابل، ونينوى، وإيكباتانا، ولو كان على علم بها لفعل. لقد كان الفرس أوّل من ساد على الإغريق. والحقيقة أن الليديين حكموهم أيضاً، لكنّ هؤلاء لم يسودوا على آسيا كلّها، بل على شطر صغير منها يقع على هذا الجانب من هاليس، ولوقت قصير اقتصر على عهديّ كريز وأليات. لقد أخضع الفرس الليديين، وإذا كان هؤلاء الأخيرين قد حقّقوا مجداً ما، فإنّ الفرس سلبوه منهم. فما أن حطّم الفرس سيطرة الميديين حتّى هزموا الليديين وأخضعوا إغريق آسيا لسلطانهم؛ بل وتوجهوا فيما بعد إلى اليونان نفسها، ومع أنهم

منيـوا بكـثير مـن الـهـزائم هنـاك، إلاّ أنّ سـيطرتهم علـى آسـيا بقيـت قائمـة هنـاك حتّـى المناطق الساحلية، إلى أن أخضعهم المقدونيون.

24- لقد كـان قورش هو الذي أقام سيطرة الفرس. وقد ورث ابنه قمبيز العرش بعده، لكنّ الماغي أطاحوا بـه. ولكـنّ الفـرس السـبعة قتلوا المـاغي ونقلـوا السـلطة إلى داريوس بن غستاب. وانتهـت سـلالة داريـوس عنـد آرسـي. فقـد قتـل هـذا الأخـير علـى يـد الخصـيّ بـاغوي الـذي وضـع علـى العـرش داريـوس الـذي لم يكـن ينتمـي إلى السـلالة الملكيـة. وقـد أطـاح الإسـكندر بهـذا الملك وملـك هـو نفسـه 10 أو 11 عامـاً. ثـمّ تقاسـم السـلطة علـى آسـيا عـدد مـن خلفـاء الإسـكندر وورثـتهم. ولكـنّ سـيطرة هـؤلاء انهـارت وقضـي عليها. لقد استمرّت سيطرة الفرس على آسيا قرابة 250 عاماً. وفي الزمن الحالي أنشـأ الفـرس دولـتهم الخاصـة بهـم، لكـنّ ملـوكهم تـابعين لملـوك آخـرين: سـابقاً للمقدونيين، والآن للبارثيين.

ســـــترابـــون ـــــــ